

تقرأ فيها:

قوانينه المنبئة عن عدله

وبياناته المجيبة عن اعتراضاتك

محمد سعيد رمضان البوطي



آفاق معرفة متجددة

www.fikr.com

المحتوى



بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم لك الحمد على نعمك التي لاتحصى.

لك الحمد على هذا الذي أقمتني فيه.. لك الحمد على نعمة العافية التي تمتعني بها. لك الحمد أن سترت قبائحي عن عبادك، وهي كثيرة وأنت تعلمها.. لك الحمد أن رفعت لي ذكراً بين عبادك وأنا لا أستحق ..

اللهم أعني على ما أقمتني فيه، ألهمني الرشد فيما أقول وأكتب وأفعل، جنبني حظوظ النفس ولغط شياطين الجن والإنس، وأكرمني بنعمة الإخلاص لوجهك الكريم، واختم حياتي بأحب الأعمال إليك، حتى ألقاك وأنت عني راض.



بين يدي هذا الكتاب

علاقة الإنسان مع نفسه، وعلاقته مع المكونات، وعلاقته بالله عز وجل، كل ذلك قائم على نظام دقيق لا يتخلف، ولا يمازجه خلل.

ومصدر النظام ومنظِّمُه، خالق الإنسان وخالق هذه الأكوان كلها.. ومن عزَّ عليه أن يتبصَّر الدليل على وجود هذا الخالق، وعلى وحدانيته، فحسبه هذا النظام العجيب دالّاً عليه ناطقاً بألوهيته. وقد علمت ما يقرره العلم من أن النظام لا يتحقق بدون منظم.

وأنظمة الكون قوانينه. والمصطلح القرآني المعبِّر عن هذه الأنظمة: (سنن الكون)، والسنن جمع سُنَّة، وهي تعني النهج الدائم الذي لا يتخلف.

وسنن الله متنوعة؛ **فمنها** ما يقوم عليه نظام الكون من حيث هو، أي بصورة عامة. والسنن التي تعبر عن نظامه الشمولي هذا، تبدأ بأدق ما لا تكاد ترصده العين عن طريق أدق الأجهزة المقربة والمكبِّرة، ثم إنها تسري لتصبح أكثر وضوحاً وأجلى بروزاً، إلى أن تتجلى في حركة الأفلاك وفي سريان الرياح الهابة ما بين السماوات والأرض، وفي السحب إذ تتلاقى وتتراكم هنا ثم تتبدد وتنمحي هناك.. وفي عالم الأرض والسماوات، وما بينها وما وراءها من المجرات.. إنها سنن بالغة الدقة والاتساع، وإنها من الكثرة بحيث لا يحصيها العدّ. وهي تلك التي يعبّر عنها القرآن بالكلمات في قوله عز وجل: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾ [الكهف: ١٨/١٠٩].

ومنها تلك القوانين التي يأخذ الله بها عباده، ويعاملهم في الدنيا من خلالها.. إنها تعبير عن النهج الذي يعامل الله الإنسان بمقتضاه، في تقلباته وسائر أحواله.

ولاحظ أنني إنما أتحدث هنا عن السنن أو القوانين التي يعامل الله بمقتضاها الإنسان، ولا أتحدث عن القوانين التي أقام الله عليها كينونة الإنسان وحياته، إن هذه الثانية تدخل هي الأخرى في كلمات الله الكونية التي لا يحصيها العدّ.

أما القوانين التي يعامل الله الإنسان في الدنيا على أساسها، فمعدودة ومحصورة؛ إذ إنها تهيمن على تقلبات الإنسان ضمن حياته الدنيوية المحدودة، فكان لا بدّ أن تكون هي الأخرى محدودة، لاحقة بمحدوديته.

إنني ندبت نفسي لبيان هذه القوانين التي عبر البيان الإلهي عنها بالسُّنن، والعمل على إبراز مظاهر فاعليتها وسلطانها في حركات المجتمعات الإنسانية وشخص الإنسان بمفرده.

وهي، كما سنجد، قوانين ثابتة مستمرة، لا تتبدل، وذلك بموجب قرار مؤكد ومكرَّر من البيان الإلهي ذاته. وذلك في مثل قوله عز وجل: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفتح: ٤٨/٢٣]، وفي قوله تعالى: ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾﴾ [الإسراء: ١٧/٧٧].

* * *

ثم إن معرفة هذه القوانين، أو (السُّنن) التي يأخذ الله بها عباده، تضعك أمام الجواب عن أسئلة كثيرة قد تخطر في بالك، أو في أفكار الكثيرين:

لماذا يكرم الله المجتمعات الكافرة، بما لا يكرمنا به؛ من بسطة الرزق، ونعم السماء، ونبات الأرض؟ لماذا تطوف بنا المحن والمصائب ويسلَّط علينا الخبيث والزيف من البشر، ونحن عباد الله المسلمون والمؤمنون به؟ لماذا يدعو أحدنا فلا يستجاب له في كثير من الأحيان؟.. وهلمَّ جراً، إلى أسئلة كثيرة أخرى من هذا القبيل.

إن هذه الأسئلة العاتبة أو المعترضة، من مفرزات الإعراض عن كتاب الله الذي نزل خطاباً لعباده. وإنّ من أبرز ما يتضمنه كتاب الله تعالى الإجابة عن هذه الأسئلة، من خلال عرض سنن الله في عباده، أي قوانينه التي يأخذهم بها.

ولئن كان فينا من المسلمين من يصرّون على مواصلة الإعراض عن كلام الله وخطابه الذي شرَّفنا به، فها أنا أجمع لهم هذه السنن وأضعها بين يديهم ملخصة في هذا الكتاب.. فإن أعطوه شيئاً من أوقاتهم التي يصرفونها إلى ما لا طائل فيه من الملذات والمبتغيات، فلسوف يقفون من خلال ما يقرؤون على الأجوبة المقنعة عن أسئلتهم واعتراضاتهم.

وإن أبوا حتى الالتفات إلى هذا الملخّص الذي أضعه بين أيديهم، فليكفوا عن اللغط الذي يوجعون به رؤوسنا، وليرجئوا اعتراضاتهم النابية إلى يوم العرض، يوم الوقوف بين يدي الله، وليحتفظوا بألسنتهم الناقدة إلى ذلك اليوم، إن كانت لهم آنذاك ألسنة تنطق.

دمشق في ٧ ربيع الثاني ١٤٣٢ و ١٢ آذار ٢٠١١

محمد سعيد رمضان البوطي



أخذه عباده بمزيج من الرخاء والشدة

دليل هذه السنة من القرآن قول الله عز وجل: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١٥٥].

وقوله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٣٥].

فما الحكمة من ذلك؟

الحكمة الأولى هي أن الإنسان عبد مملوك لله بواقعه الاضطراري، والمطلوب منه أن يبرز هذا الواقع الاضطراري في كيانه عن طريق سلوكه الاختياري.

وبيان ذلك أن أسلوب الإنسان ينبغي أن يكون منسجماً مع هويته، شأنه في ذلك كشأن لباسه الذي ينبغي أن يكون متناسقاً مع جسمه. وقد ثبت بما لا يدع مجالاً للريب أن الإنسان منفعل بالصفات الكثيرة التي يتمتع بها، وليس فاعلاً باختياره لشيء منها، فهو يتمتع بالعقل والفكر ولكنه لا يملك سبيلاً للتصرف بهذه المزية، فلا هو غرسها في كيانه بإرادة منه، ولا هو يملك سبيلاً لاستبقائها لديه. وهو يتمتع بنعمة النطق، ولكنه منفعل بهذه النعمة غير فاعل لها باختياره لها وهو يتمتع بنعمة البصر والسمع والعافية، ولكنه لم

يجلب شيئاً من ذلك إلى ذاته باختياره، ومن ثم فهو لا يملك أي سبيل إلى استبقاء شيء منها لديه، بل سيفارقه كل من العافية والشباب والسمع والبصر بانفعال قسري كما تفتّح كل ذلك في كيانه بانفعال قسري.

إذن فالإنسان مملوك لمن غرس فيه هذه الصفات وتركه ينفعل بها، دون أن يكون له أي سلطان عليها، وقضى بأن يسترجعها منه عندما يشاء.. وهذا معنى قولنا إنه عبد لمن يملك في كيانه هذه الصفات. وإنه لَقرار منطقي علمي لا ريب فيه.

فمن هذا المالك للإنسان وصفاتِه؟

إن العلم يقرر بأنه الله الذي فطر هذه المكونات كلها.. وقد فصلت لك قرار العلم هذا في كتابي (كبرى اليقينيات الكونية) وفي كتابي (التعرف على الذات).

فإذا ثبت أن الإنسان عبد لهذا الذي يملك ذاته وصفاته، إذن يجب عليه أن يعرف ذلك، ثم يجب عليه أن يُخضع سلوكه الاختياري لما يتفق مع واقع عبوديته الاضطرارية لهذا الذي هو مِلْك يده ولا مفرَّ له من سلطانه.

ولكن كيف تتجلى عبودية الإنسان السلوكية والاختيارية لله؟

والجواب أنها إنما تتجلى بانقياده لأمرين اثنين: الشكر له عند الرخاء، والصبر عند الابتلاء. والشكر هو صرف النعم التي تفد إليه لما يتفق مع مرضاة الله، والصبر هو إعلان الرضا عن الله وعدم التسخط عند هجوم البلاء. فإن هو شكر الله عند النعم التي يمتعه

بها، وصبر عند المحن التي يبتليه بها فقد مارس عبوديته لله بالسلوك والاختيار كما قد خلق عبداً له بالقسر والإجبار.

غير أن ممارسة الإنسان لعبوديته الاختيارية لله بهذه الطريقة، رهن بوجود المناخ الذي لا بدَّ منه لوجود هذه الممارسة، وأعني بالمناخ الذي لا بدّ منه أن يتقلب الإنسان من حياته التي يعيشها في مزيج من أسباب الرخاء ومظاهر الضّراء. فإن هو لم يتلق في حياته إلا النعم وأسبابها أو لم يواجهه منها إلا المصائب والنكبات، فلن تتسنى له هذه الممارسة السلوكية.

فمن هنا كانت هذه السنة الربانية الماضية في الناس، منذ فجر النشأة الإنسانية، وهي باقية بقضاء من الله عز وجل إلى يوم القيامة.

في الناس من يسألون، بل ينتقدون، قائلين: وفيم يكلَّف الإنسان بأن ينأى عن حريته التي يحبّ أن يتمتع بها، وأن يمارس بدلاً عنها عبودية اختيارية تقصيه عن رغائبه ومتطلباته؟

والجواب أن الإنسان إنما يملك أن يمارس حريته تجاه أنداده من الناس الذين يتعامل معهم، وهي موفورة لديه لا تُضيِّق شيئاً منها عبوديته الاضطرارية أو السلوكية لله عز وجل، بل إن عبوديته السلوكية لله تعالى تحمي حريته تجاه الآخرين من العدوان عليها أو الانتقاص منها. إن مما لا يغيب عن البال أن الإنسان الذي أيقن بمملوكيته وعبوديته لله وحده، لا يستطيع أحد من عباد الله أن يتطاول عليه بتبعية يمليها عليه أو بحكم يبرمه في حقه. والوقائع الكثيرة شاهدة، بل ناطقة بذلك.

أمّا تصور إمكان التحرر من سلطان العبودية لله، فإنما هو أمنية الحمقى من الناس..

هب أن خطاباً إلهياً سايرهم قائلاً: لكم ما تحبون، فلتتحرروا من سلطان عبوديتكم لله ما وسعكم ذلك، ما الذي بوسعهم أن يفعلوه في مجال هذا التحرر؟!..

أبوسع أحدهم أن ينأى بنفسه عن المشيب الذي قضى عليه الله به، أم بوسعه أن يحصّن جسمه ضد الأمراض التي تنوشه، أم بوسعه أن يحمي عقله من عقابيل الخرف عندما يقع في قبضة الشيخوخة، أم بوسعه أن يتسامى عن آفات الجهل بعد العلم، والنسيان بعد الفكر، والكآبة بعد المرح، والجنون بعد الرشد، والأرق بعد النوم، والموت بعد الحياة؟!

وبعبارة مختصرة: أبوسع أحدهم أن يفعل باختياره ما هو منفعل به قسراً من المزايا والصفات التي ركبت فيه، جاءته من حيث لا يعلم، وينفعل بها كما لا يعلم، وستودعه منصرفة عنه بعد حين إلى ما لا يعلم؟

إن الإنسان محكوم عليه بالصفات التي يتمتع بها، ومحكوم عليه قبل ذلك بوجود لا اختيار له فيه ثم بموت لا علم له بميقاته، ولا يَدَ له في دفعه عنه.. فمن اشتهى أن لا يكون مقيداً بشيء من هذه الأحكام، ثم تخيل ذلك قراراً نافذاً يحكم به، ثم استعلن بهذه الأمنية قراراً يرضي به غروره وحمقه، عاش سجين أمانيه وأحلامه، ثم قضى نحبه شهيد تلك الأحلام.

إن من حق الإنسان أن يطمح به القصد إلى ما قد يتاح له تحقيقه وإدراكه، أما أن يلقي بشبكة أحلامه إلى ما لا قبل له به وما يعلم أن لا سبيل لوصوله إليه، فإنه يغدو بذلك كالقزم الذي يصرّ على أن

يرتدي ثياب المردة الطوال، ظاناً فيما يوحي إليه حمقه أنه يتحرر بذلك من قصره الشائن، ويغدو واحداً ممن تنبهر بأطوالهم الفارعة أعين الناظرين.

على أن الحرية التي ينادي بها هؤلاء الناس رهن - كما قلت - بالخضوع لسلطان العبودية لله، فذلك هو الذي يمتّع الإنسانَ بحريته الحقيقية في علاقاته المختلفة بسائر الناس، وقد أوضح البيان الإلهي هذا بقوله عز وجل:

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٣/ ٦٤].

* * *

ثم إنك تلاحظ أن البيان الإلهي يخاطب بهذه السنة الربانية عباده جميعاً، ولا يخص بذلك فئة دون أخرى، وهو دليل على أن الشدائد التي يمزجها الله تعالى مع الرخاء في حياة الإنسان، ليست عقوبات عاجلة على معاصٍ قد ارتكبها، وإنما هي سنة ماضية في حق الناس جميعاً بمن فيهم الرسل والأنبياء وسائر المقربين من عباد الله، للسبب الذي أوضحته لك، وهو تحقيق المناخ الذي يتاح للمسلم أن يبرز من خلاله عبوديته السلوكية لله عز وجل.

أما المصائب التي يرسلها الله إلى العصاة من عباده جزاء لعصيانهم، فتلك داخلة في سنة أخرى من سنن الله في عباده، سيحين بيانها والبحث فيها فيما بعد.

* * *

أما الحكمة الثانية من هذه السنة الربانية التي نقرؤها في كتاب الله عز وجل، فهي ما ينبغي أن نعلمه جميعاً من أن الحياة الدنيا دار تكليف، وأن الحياة الآخرة دار جزاء، ومن ثم فإن هذه الحياة التي نعيشها اليوم ممرٌّ إلى مقرّ..

وإذن فينبغي أن لا يكون فيها من المبهجات والنعم وأسباب المتعة ما يصفو عن المكدرات والمنغصات وشوائب الآلام، كي لا يتعلق بها المارّون بها؛ أولئك الذين قضى الله أن يرحلوا عنها وأن لا يلبثوا فيها إلا قليلاً.. إنها لو كانت صافية - مع هذا - من المنغصات، وتكاملت فيها النعم والخيرات، إذن لتعلق الناس بها تعلقهم بالجنة التي وُعِدُوا بها، ولزهدوا في تلك التي يقطعون إليها المفاوز، مستبدلين بها الجنة التي هي تحت أيديهم يعيشون فيها ويتقلبون في نعيمها..

فتأمل في العذاب الذي يتجرعونه عندما يفاجؤون بساعة رحيلهم عنها، وقد راحوا يستذكرون مدة إقامتهم فيها فلا يرونها إلا كغفلة الوسنان.

تُرى أمِنَ الحكمة أن يُقطَّعوا عن نعيمهم الذي تعلقوا به، كما يقطّع الطفل الصغير عن ثدي أمه وهو أشد ما يكون احتياجاً إليه وتعلقاً به؟!..

إن هذه الحياة الدنيا دار تكليف وليست دار تشريف، ثم إنها ممر إلى مقر وليست موطن استقرار وبقاء. إذن فيجب أن يكون في دار التكليف ما يناسبها مما ينسجم مع عبودية الإنسان لله، وأن لا يزيد نعيمها وخيراتها على بُلْغة المسافر، وعلى ما تحويه استراحة الطريق.

هذا بالإضافة إلى أنها ينبغي أن تكون المناخ المناسب الذي تتجلى فيه عبودية الإنسان السلوكية لله عز وجل، كما سبق أن بينت.

ثم إن هذه السنة الإلهية الماضية في عباده، هي ضمانة تلاقيهم تحت مظلّة العدل، واجتماعهم على التعاون لتحقيق مصالحهم المشتركة، وهي الحصن الذي يقيهم من تسرب أسباب الظلم والطغيان إلى علاقة ما بينهم. هذا إن كانوا مؤمنين بالله عز وجل.

أجل .. فإن الإنسان إذا تقلب من حياته في مزيج من السراء والضراء، استيقظت مشاعر عبوديته لله بين جوانحه، فقاده ذلك إلى الخضوع لسلطان الله والانقياد لشرعه، فيغدو بذلك عبداً لله بسلوكه الاختياري في علاقته مع ربه وعلاقته مع سائر الناس. فهل يكون له من سبيل عندئذ إلى ظلم الآخرين أو انتقاصهم أو سلب شيء من حقوقهم أو الإساءة إليهم؟!.. إن سلطان العبودية لله إذا هيمن على مشاعر الإنسان، طرد هذه الآفات كلها من كيانه، ومتعه بالإنسانية المثلى، الصافية عن سائر الشوائب.

وما مارس الطغاة الذين مروا بمعبر هذه الدنيا، والذين يتقلبون في مناكب الأرض اليوم، طغيانهم وعتوّهم، إلا لأنهم جميعاً عاشوا ويعيشون محجوبين عن هُوياتهم، تائهين عن واقع مملوكيتهم وعبوديتهم لله، فكان ذلك هو سبب استلابهم للحقوق واستمرائهم للظلم، وعدم اكتراثهم بما ينتظرهم من العقاب.

لا أدلَّ على ذلك من الحالة التي آب إليها بعض أولئك الظلمة الطغاة، وهم الذين صحوا إلى هوياتهم، وآمنوا بربهم، وعرفوا مالكيته لهم وعبوديتهم له، فلقد صحت حالهم وكفَّروا عن ماضيهم

وأصبحوا مضرب المثل في ممارسة الإنسانية المثلى من خلال تعاملهم مع الآخرين.

ولكن فلتعلم أن الطغيان إذ يستشري بصاحبه، قلما يتركه ليصحو إلى هويته ومعرفة ذاته عبداً مملوكاً لله عز وجل. ذلك لأن حالة الطغيان تتعارض من حيث ذاتها مع مشاعر العبودية لله، أما الحالة التي تتلبس بالعاصي المؤمن بالله، فهي نتيجة ضعف وعجز عن مقاومة النفس والغريزة الحيوانية.

إن الطغيان طموح إلى غاية يحلم بها الطاغي ولا يتأتى له البلوغ إليها؛ وهي دعوى الألوهية. ولكنّه يظل نزّاعاً إليها أما العصيان فهبوط إلى حيث الذلة والانكسار، وما أقرب أن يتلاقى كل منهما مع عبودية العاصي وواقع مملوكيته لله، وإذا هو تائب آيب إلى الله.



قراره القائل:
من يعمل سوءاً يجز به

وهي تأتي كالتتمة أو القيد للسُنَّة الأولى.

دليلها من كتاب الله عز وجل قوله سبحانه: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤/ ١٢٣].

والآية توهم في ظاهرها أن جزاء العمل السيئ مدَّخَر لصاحبه إلى يوم القيامة. وهذا ما فهمه جمع كبير من الصحابة، ولذلك هُرِعوا إلى رسول الله ﷺ، وقد شقَّ ذلك عليهم، وفي مقدمتهم أبو بكر رضي الله عنه، فطمأنهم رسول الله ﷺ قائلاً: «سددوا وقاربوا، فإن في كل ما يصاب به المسلم كفارةً له، حتى الشوكة يُشاكها والنكبة يُنكَبُها»[1]. وروى أحمد والحاكم في مستدركه أن هذه الآية لما نزلت، شقّ ذلك على كثير من الصحابة، وأقبل أبو بكر إلى رسول الله ﷺ يقول: كيف الفلاح يا رسول الله بعد هذه الآية؟! أفكل سوء عملناه نُجزى به؟!.. فقال له النبي ﷺ: «غفر الله لك يا أبا بكر، ألست تمرض؟ ألست تنصب؟ ألست تحزن؟ ألست تصيبك اللأواء؟» قال: بلى، قال: «فهو ما تجزون به».

(١) رواه أحمد ومسلم والترمذي والنَّسائي، كلهم من حديث سفيان بن عيينة، بألفاظ متقاربة.

فدلّ ذلك على أن من سنن الله في عباده أن يعاقبهم على كل سوء يصدر باختيار وطواعية منهم؛ ثم إنه قد يكون في دار الدنيا، وقد يكون يوم القيامة. وما يكون منه في الدنيا هو المصائب التي يصاب بها الجسم أو النفس، مما ذكر رسول الله أمثلة له.

وإنما يعجل الله عقاب ذلك في الدنيا لمن شاء أن يرحمهم، وأن يُحشروا إليه يوم القيامة طاهرين مبرّئين من دنس الآثام والسيئات. وذلك هو مبعث الطمأنينة التي أدخلها رسول الله في نفس أبي بكر وأصحابه، عندما ساقهم الفزع من الآية بالشكوى إليه.

إذن فالابتلاءات التي تواجه العبد في دار الدنيا، منها ما يكون مصدره السُّنّةَ الأولى التي سبق بيانها، أي فهو مما يتعرض له الناس جميعاً، وليس عقاباً على أي سوء.. ومنها ما يكون كفارة عن أوزار ارتكبها الإنسان، فيكون مصدره هذه السنة الثانية.

ومن شأن الإنسان المؤمن بالله أن يتساءل -عندما يتعرض لمصيبة ما -: أهي عقوبة له على معصية ارتكبها، أم هي من تطبيقات السنّة الأولى الماضية في الناس جميعاً بمن فيهم الرسل والأنبياء والأولياء، للحكمة التي تم بيانها؟ والأولى بالمؤمن أن يرجح أنه إنما ابتلي بها لمعصية ارتكبها أو لتقصير بدر منه، فذلك أدعى أن يقوده إلى التوبة والاستغفار، وقد علمتَ أنه ما من مسلم إلا وهو مدعوٌّ إلى كلٍّ من التوبة والاستغفار، أياً كان شأنه وأياً كانت منزلته. ألا ترى إلى قول الله: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [النور: ٢٤/٣١]، وإلى وصفه النخبة الصالحة من عباده بقوله: ﴿كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الذاريات: ٥١/١٧-١٨]، وإلى قول رسول الله ﷺ فيما رواه مسلم وأحمد وأبو داود والنسائي

من حديث الأغر المزني: «إنه ليغان على قلبي، وإني لأستغفر الله في اليوم مئة مرة»؟!.

هذا؛ إلى أنه ليس فينا، حاشا الرسل والأنبياء، من هو معصوم عن الذنوب والآثام، كيف وقد قال رسول الله ﷺ، فيما رواه أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم من حديث أنس: «كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون»؟

❊ ❊ ❊

والآن علينا أن نُخضِع الصياغة القرآنية المعبرة عن هذه السنة الربانية لما قد يتعلق بها من قواعد تفسير النصوص.

إن صياغة الآية جاءت عامة في التعبير عن هذه السنَّة أو القانون؛ فـ (مَن) في قوله تعالى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤/ ١٢٣] من ألفاظ العموم، فهي تدل إذن على أن كل من ارتكب سوءاً لابدّ أن يجازَى به، لا فرق في ذلك بين إنسان وآخر، ولا فرق بين التائب وغيره.

ولكن البيان الإلهي خصص عموم هذه الآية، في آيات أخرى؛ فقد استثنى في أكثر من آية التائبين، وأعلن أن الله يغفر ذنوبهم، بل يبدل أيضاً سيئاتهم حسنات. من ذلك قوله عز وجل: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٧٠]، ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾ [طه: ٢٠/ ٨٢].

فدلَّ ذلك على أن هذه السنّة الإلهية خاصة بمن لم يرعو عن غيّه أو عن المعاصي التي تورط فيها، بالتوبة إلى الله.

وفي القرآن تخصيص آخر لهذه السنة التي جاءت هنا بلفظ عام كما قد رأيت، دلّ عليه قول الله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الشورى: ٤٢/٣٠]، فالجزء الأول من الآية تأكيد لقوله تعالى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤/١٢٣]، ولكن الجزء الثاني منها يدلّ على أن في الناس من يعفو الله عن آثامهم ولا يعاقبهم عليها لا في الدنيا ولا في الآخرة، بقطع النظر عن اشتراط التوبة منها، خلافاً للمعتزلة الذين ذهبوا إلى أن العفو عن المعاصي منوط بالتوبة، فمن لم يتب لا منجاة له من العقاب، وهم محجوجون بقول الله تعالى في هذه الآية: ﴿وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾، وبقوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤/١١٦](١).

فإن قلت: فأيهما السنّة الإلهية العامة، وأيهما العارض والاستثناء؟

قلت: الآية التي صيغ معناها بلفظ العموم هي التي تعبر عن السنة الإلهية الماضية في الناس جميعاً. وهي قوله تعالى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ ألا ترى إلى لفظ العموم في أول هذا القرار الرباني وهو ﴿مَن﴾ .. أما ما جاء مخالفاً مخالفة جزئية لعموم هذا النص، فهو عارض واستثناء.

فإن نازعتك نفسك، وأوهمتك أن القرار العام هو قوله تعالى: ﴿وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾، وقوله: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾،

---

(١) انظر تفصيل مذهب المعتزلة والردّ عليهم في كتاب (المذاهب التوحيدية والفلسفات المعاصرة) لمؤلف هذا الكتاب، ص: ٨٥.

وأن قوله تعالى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ هو العارض والاستثناء، فاذكر أن قرار العفو جاء لبعض من الناس دون كلهم، دلَّ على ذلك قوله تعالى: ﴿عَن كَثِيرٍ﴾ في الآية الأولى، وقوله: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ في الآية الثانية، على أن هذا البعض غير معين في أي من الآيتين، فأنت لا تعلم أتكون أنت واحداً من أفراده، ولا تعلم أأنت ممن شاء الله أن يغفر لهم. أما القرار العام في قوله عز وجل: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ فهو شامل لك ولأضرابك فيما تقرره الدلالة اللغوية بدون ريب.

* * *

بقي أن في الناس من يسأل عن ضرام الشهوات التي تتأجج في نفوسهم، تغريهم بالانزلاق في المحرمات، أهي أيضاً من الابتلاءات التي تكون عقاباً، لمعصية ما أو لمعاصٍ تورطوا بارتكابها، ولم يتوبوا منها؟

والجواب: أن الغرائز الحيوانية التي فُطر عليها الإنسان، ليست مظهر عقاب، ولا دليل انحراف، كما أنها ليست مؤشراً على طوية سيئة كان ينبغي أن لا توجد.

إن هذه الغرائز جزء من الفطرة التي فطر الله الإنسان، أياً كان، عليها. ولله حكمة باهرة في كل ما فطر الله الإنسان عليه. فكيف يوصَف متعلَّق الحكمة الإلهية بالسوء أو الانحراف؟!

كم في الشباب من شكا إليَّ لواعج شهواته وأهوائه، وطاف بذهنه وهم بأن الله قد قلاه وأبغضه فتركه لضرامها، وكم أطلت وأعدت البيانات والدلائل التي توضح بأن هذه اللواعج إن هي إلا ضريبة

التكريم الذي ميز الله به صنف الأناسي عن صنف الملائكة، وهل يبلغ الإنسان درجة الصديقين إلا على سلّم هذه اللواعج إذ يرقى فوقها صابراً محتسباً، بقدميه؟

هل كان للإنسان سبيل إلى المثول في محراب الصبر، ينال عليه أجراً بغير حساب، لولا هذه اللواعج التي تغريه بالمعصية، فيصرّ على أن يتجرع منها المرارة، وأن يعمد بدلاً من إطفائها بحلاوة المعصية، إلى إطفائها بحلاوة بلوغ مرضاة الله؟

إذن فالغرائز الحيوانية، وإن كانت متفاوتة في نفوس الناس، ليست عقاباً على آثام، وكيف تكون عقاباً لآثام لم تُقْتَرف بعد؟ وإنما هي تربة تُستنبت فيها الأعمال الجهادية المقربة إلى الله؛ إذ لولا هذه الغرائز لما كانت للاستقامة على الطهر والعفاف أي مزية.

وهذا هو السبب في أن الصفوة من علماء الشريعة الإسلامية حذروا من أن يدعوَ المسلم ربه أن يحرره من غرائزه الحيوانية، لأنه يعبّر بذلك عن عدم رضاه عن هذه السنة التي قضى بها الله تعالى في عباده، وباهى بالصبر عليها أو الحدّ من سلطانها ملائكته الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

ولكن المطلوب من المسلم أن يلجأ إلى ربه يسأله أن يوفقه للجم غرائزه بلجام الشريعة والوقوف بها عند حدود الله عز وجل، بدلاً من أن يسأله الخلاص منها واجتثاثها من نفسه.

لا أدلَّ على هذا من أن الله لم يبتلِ بهذه الغرائز المنحرفين أو التائهين من عباده فقط، بل قضى أن يبتلي بها عباده جميعاً، وذلك في قوله عز وجل:

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١٤].

* * *

على أن لله حكمة باهرة أخرى من تحميله الإنسان أعباء هذه الغرائز الحيوانية نجملها فيما يلي:

من المعلوم أن الله شاء أن يقيم الإنسان من دنياه هذه في عالم الأسباب. فأشعره بالجوع حفظاً لصحته وحياته، ووضع بين يديه الأطعمة المناسبة التي تسدّ سغبه، وأشعره بالظمأ دفعاً له إلى رعاية جانب آخر من صحته، ووفّر بين يديه الماء الذي يروي غُلَّته ويصلح شأنه، وأشعره بحاجة الركون إلى الأنثى وإشباع نفسه (ذكراً أو أنثى) بغريزة الجنس إبقاء للسلالة وتواصل الأجيال، ومتعه لتحقيق ذلك بشرعة الزواج.. وهكذا.

وكان من اليسير على الله عز وجل أن يُشبع الإنسانَ بدون طعام، وأن يُرويه بدون شراب، وأن يستولد الأجيال بعضها من بعض في سلسلة متواصلة بدون زواج، ولكنه - عز وجل - شاء أن يقيم حياة الإنسان وبقاء النوع على الأسباب التي هو مسببها، فاقتضت الحكمة أن تتوجه الرغبة من الإنسان إلى التعامل مع تلك الأسباب، وكانت الرغبة متمثلة في هذا الذي نسميه (الغرائز الحيوانية)، من التعلق بالطعام والشراب والمسكن والملبس والتواصل الجنسي . وإنما هي سبيل للنهوض بتلك الوظائف.

وبوسعك أن تعلم إذن أن التعامل مع هذه الغرائز، ضمن الضوابط

الشرعية، وبحدود الحاجة الإنسانية التي نبهتك إليها، داخل في الوظائف الإنسانية، التي شرف الله الإنسان بها، فليس فيها ما يعيّر الإنسان أو يتعارض مع مستوى التكريم الذي متعه الله به.

ولكن الشرود بهذه الغرائز بعيداً عن ضوابط الشرع، مفصولةً عن أهدافها الإنسانية المجيدة هو الذي يرسم الشكل الحيواني الأرعن لها. فالرعونة أو الحيوانية الهابطة ليست وصفاً لهذه الغرائز بحدّ ذاتها، ولكنها وصف لسوء التعامل بها، وهو فيصل ما بين الحق والباطل والخير والشر في كثير من الأحيان.



طرده المستكبرين عن ساحة مغفرته

والمراد بالمستكبر، المتعالي عن ذلٍّ (بل عن واقع) عبوديته ومملوكيته لله عز وجل. فهو يأنف من معنىً العبودية لله أن يوصف به، ويرى أنه يملك حريته في أن يتصرف كيف يشاء وأن يعمل ما يشاء.. يعصي الله بدافع من تبريره للمعصية واعتداده بها، مع الاستهانة بما يسمعه أو يبلغه من نهي الشارع عنها وتحذيره منها.

وبيان ذلك أن العاصي يتورط في المعصية بواحد من دافعين لا ثالث لهما:

أحدهما دافع الضعف الذي ابتلى الله به الإنسان، إذ لا يقوى بسبب ذلك على التسامي على دوافعه الشهوانية وغرائزه الحيوانية التي تحدثنا عنها آنفاً، فتتغلب عليه وتقوده إلى ارتكاب المعصية، وهو يدرك خطأ استجابته لغرائزه فيما دفعته إليه، ويقر بأن عليه أن يطيع أمر الله فلا ينقاد لها.

ثانيهما دافع الاعتداد بالذات والاستخفاف بأمر الله، وتخيل أنه حرٌّ يملك أن يفعل ما يشاء. فهو إذ ينهمك في ارتكاب المعاصي على اختلافها، ينطلق إليها بدافع ما يعدّه حقاً له في أن يتصرف كما يشاء، وبالجملة فهو ذاهل أو محجوب عن حقيقة مملوكيته، ومن ثم عن عبوديته لله. فهذا ما يعبَّر عنه بدافع الاستكبار على الله.

فأما العصيان الذي يتم بسائق من الضعف الذي يعاني منه الإنسان، فإن مآله إلى مغفرة الله للعاصي المؤمن بالله مهما تورط في العصيان. ومن أجلى الأدلة على ذلك قول الله تعالى: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر: ٣٩/٥٣]، وقوله عز وجل لإبليس - وقد آلى على نفسه، بعد أن طرده من رحمته لاستكباره على آدم ورفضه السجود له، أن يُغْوي سُلالته وأن يُغري أفرادها بالانحطاط في أودية الضلال -: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحجر: ١٥/٤٢].

ووجه الدلالة في هاتين الآيتين على ما أقول أن الخطاب في الآية الأولى إنما هو لعباد الله المؤمنين بربوبيته لهم وبعبوديتهم له، كما هو ظاهر من سياق الآية وسباقها، ولا ريب أن المعاصي التي يتعرضون لها إنما يرتكبونها بسائق الضعف الذي رُكِّب في كيانهم، والشأن فيهم أن تستيقظ فيهم مشاعر الندامة، ومن ثم دوافع التوبة بعد انفلاتهم من أسر أهوائهم التي ساقتهم إليها.

والدلالة ذاتها كامنة في الآية الثانية، وبيان ذلك أن معنى قوله عز وجل: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾: إن الذين تحققوا بمعنى العبودية لي ووضعوها من حياتهم موضع التنفيذ، ليس لك عليهم سلطان. إذ إنا لو فسرنا كلمة (عبادي) بمعناها المتبادر العام، لصدق على سائر الناس بمن فيهم الملحدون والكافرون على اختلافهم، إذ إنهم جميعاً عبادٌ لله، سواء آمنوا بذلك أم لم يؤمنوا.. فتبين إذن أن معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى﴾: إن الذين أيقنوا بعبوديتهم لي ووضعوها من حياتهم موضع التنفيذ، فهؤلاء هم الذين لن يكون

للشيطان عليهم سلطان؛ إذ إن عبوديتهم المستيقظة لله بين جوانحهم تقودهم إلى الندامة والتوبة كلما شردوا عن ضوابط الشرع وكلما دفعتهم أهواؤهم إلى ارتكاب الموبقات. ولا ريب أن الله يقبل توبتهم، تنفيذاً منه لقراره القائل: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾ [طه: ٢٠/ ٨٢]. وهكذا فلن يكون للشيطان عليهم سلطان إذن، وإن هم تورطوا بارتكاب الأوزار؛ لأن عبوديتهم لله ستقودهم أخيراً إلى الندامة والتوبة، والشأن في رحمة الله وفضله أن يقبل التوبة عن عباده.

وأما العصيان الذي يكون بسائق الاستكبار على الله عز وجل، فإن الذي يستوجب منه مقت الله وغضبه ليس ذات العصيان، وإنما الاستكبار الذي دعا إليه. وربما ظهر هذا الاستكبار بمظهر الاستخفاف بالمعصية والاستهانة بها، وربما ظهر بمظهر الاعتراض على الله في شرعه وحكمه.

ومن أجلى الأدلة على أن المستكبر على الله بعصيانه مطرود من رحمة الله مقطوع من الأمل بتوبة الله عليه، آيات كثيرة في كتاب الله، ذات دلالة صريحة قاطعة على هذه السنة الإلهية الماضية في حقه.

فمن ذلك قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٧/ ٤٠].

ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ١٤٦].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ٤/ ١٧٣].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٤٠/ ٦٠].

واعلم أن الاستكبار الذي هو سبب مقت الله وغضبه على عباده المستكبرين، هو ذاته السبب الذي طرد الله من أجله إبليسَ من رحمته وجنته. ألا وإن جميع المستكبرين في الأرض، جنود لإبليس وتَبَعٌ له، سواء أعلموا بذلك أم جهلوا.

ولكن فيم كان استكبارُ العبد الجريمةَ الكبرى، بل الجريمة الوحيدة، التي يتسبب عنها طرد المستكبرين من رحمة الله وصفحه.

السبب في كونه الجريمةَ الكبرى أنه تعبير عن نقيض الصفة الحقيقية التي يتصف بها الإنسان. فالإنسان أياً كان عبد مملوك لله، لا يتأتى منه شيء إلا بإرادة الله وتوفيقه، فإذا استكبر فقد تشبَّع بما ليس فيه، ونعت نفسه بنقيض ما هو فيه. وذلك يعني أنه أنكر عبوديته لله.. ومعنى الإجرام في ذلك أنه يتمطى إلى ما لا يمكن أن يبلغه، ويدعي ما لا يمكن أن يناله. وهو بحدّ ذلك خلق ذميم وتصرف سمج، إنه أشبه ما يكون بالقزم الذي يصرّ على أن يرتدي ثياب المردة الطوال، إنك لتنظر إليه فتجد أن قِصَره يلعن دعوى طوله الزائف الذي لا يعبّر عنه إلا الثوب الذي لا يستر منه إلا ربعه، وتمسح بقاياه من ورائه تراب الطريق وأقذاره.

ومن هنا كانت صفة الكبرياء بمقدار ما هي مذمومة إذ يدعيها الإنسان لنفسه، كاملةً وممجّدةً عندما يصف الله بها ذاته، وإنك لتجد

أنه يصف ذاته العلية بالكبرياء لا بالاستكبار، فهو يقول: ﴿وَلَهُ ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ [الجاثية: ٤٥/٣٧] ذلك لأن الاستكبار تعبير عن تكلف الكبرياء ومحاولة باطلة للبلوغ إليها. وذلك هو شأن الإنسان، ولذا فإنك تجد أن القرآن يصف الإنسان الذي يتمطى إلى هذه الصفة بالاستكبار غالباً، ولا يخلع عليه صفة التكبر أو الكبرياء.

* * *

والآن، لعلك تطرح السؤال التالي:

فكيف يطرد الله المستكبرين عن رحمته في دار الدنيا؟ إننا لنراهم أو نرى الكثيرين منهم، يتقلبون في مظاهر النعيم ويتمتعون برغد العيش، ويتألق لدى كل منهم الوعي ويتقد الذهن. فما معنى طَرْد الله لهم من رحمته وهذه هي حالهم؟!

والجواب أن المراد بطرد الله إياهم من رحمته في دار الدنيا، إغلاقه منافذ قلوبهم وجعلها تعاني من القسوة البالغة، وتعطيل عقولهم عن معرفة الحق والتعامل معه، وتسليط استكبارهم على أصول الحوار والمحاكمة الفكرية، كي لا يكون لهم من سبيل إلى أي إنابة إلى الحق وإلى أي وجه من وجوه التعامل مع هوياتهم عبيداً لله عز وجل، مهما لاحت أمامهم بوارق الدلائل وقوارع النذر التي يبعثها الله لعباده.. فلا جرم أنَّ طردَ الله لهم لا يعني عدم تمتيعهم بملذّاتهم الدنيوية أو عدم نيلهم لمغانم المال أو المعايش والرُّتب، بل ربما تفتح أمامهم أبواب الكثير من ذلك.

ألا ترى إلى قول الله تعالى متضمناً هذا العقاب، أو هذا المعنى الذي هو المقصود بالطرد الذي قضت به سنة الله في حقهم: ﴿وَإِن

يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ﴾ [الأعراف: ٧/١٤٦]؟

ألا تتأمل في هذا المعنى الذي أقول لك واضحاً جلياً في قوله عز وجل: ﴿ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا ﴿١١﴾ وَجَعَلۡتُ لَهُۥ مَالٗا مَّمۡدُودٗا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودٗا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِأٓيَٰتِنَا عَنِيدٗا ﴿١٦﴾ سَأُرۡهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾﴾ [المدثر: ٧٤/ ١١-١٧].

وإنك لتنظر اليوم إلى المستكبرين على الحق في جنبات الأرض، فلا ترى فيهم إلا مظاهر سخط الله متمثلاً في هذه الدلائل التي أقولها لك، ولقد بسطها بيان الله في محكم تبيانه بسطاً ترتعد له الأفئدة وتقشعر له الجلود، إلا أفئدة وجلود هؤلاء الذين أحدثك عنهم.

حدثني صديق جامعيّ لي أنه دخل مجلس تعزية ليعزي مسؤولاً معروفاً بوفاة والدته، وصادف أن دخل معه زميل جامعي من الفئة التي أحدثك عنها، مستكبر على الحق، مستخفٌّ بالدين ومبادئه، مُستهتر بالقرآن وقيمه.. يقول صديقي هذا: فجلسنا في قاعة التعزية، وصادف أن كان جلوسه إلى جانبي، وكان القرآن يُتلى كالعادة، فلا والله ما مرت دقيقتان حتى همس هذا الزميل في أذني قائلاً: قم .. قم .. إن هذا الكلام الذي أسمعه يكاد يغير تفكيري!! وقام مولّياً مسرعاً وكأنه يفرّ من خطر أحاط به.

أقول: وأنا أعرف هذا الزميل الذي فرَّ هارباً من نداء عقله، كان من أساتذة الحقوق في جامعة دمشق. ولم يكن يتعامل مع الناس، ولا سيما المناقشين والمحاورين له، إلا من خلال استكباره وعناده، وكان مستهيناً بالدين وقيمه وممثليه، ولقد بُلي منه الجسم أخيراً

ونَخَر فيه العظم من خلال موت بطيء، أقعده بعيداً عن الناس والأهل والأرحام، ونال منه الكرب والضنى، ثم انطفأت بقايا الجذوة من حياته في ساعة لم يكن حوله فيها أحد، إلا ظلال وحشته وهمّه. وصدق الله القائل:

﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾﴾ [الإسراء: ١٧/ ٣٧].

* * *

وحصيلة القول أن المعاصي بحدّ ذاتها لا تكون سبباً لابتعاد العاصي عن رحمة الله، بل ما أكثر ما تكون سبباً لاشتعال نيران الألم والندامة في قلبه، عندما يكون الحاملُ عليها الضعفَ والعجزَ عن مقاومة الغرائز وعن التغلب عليها، فيدفعه ذلك إلى التوبة والأوبة الصادقة إلى الله.

ولكن الذي يكون سبباً لاحتجاب الإنسان عن رحمة الله وصفحه، استكبارُه على أوامره، واستهانتُه بشرائعه، وتجاهلُه لذلّ عبوديته ومملوكيته لله عز وجل.

إذن فلا تناقض، بل لا تخالف بين هذه السنة الربانية التي قضت بطرد المستكبرين عن رحمة الله ومغفرته وبين قوله تعالى: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر: ٣٩/ ٥٣] وذلك بمقدار ما يوجد من التخالف والتناقض بين من يمعن في المعاصي تباهياً واستجابة لنشوة العتو والاستكبار في نفسه، ومن ينساق إلى

المعاصي بزمام من غرائزه وأهوائه، متألماً من امتزاج شعور الركون إلى متطلبات غرائزه، بشعور الخجل من مخالفته لأمر ربه.

وكتاب الله تعالى يفيض ببيان الفرق ما بين الحالتين، وما يستأهله كل منهما بمقتضى سنن الله في عباده.



تحقيقه لثمرات جهود العاملين في الدنيا أياً كانوا

مصدر هذه السنة آيات في كتاب الله عز وجل أبرزها، قوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝١٥﴾ [هود: ١١/١٥]، ومنها قوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ [الإسراء: ١٧/١٨].

إن كلتا الآيتين تلتقيان على تقرير المعنى التالي:

ما من أشخاص أو أمة تبذل جهداً ابتغاء الوصول إلى ثمرة منه في الدنيا، إلا وفي سنة الله وقضائه ما يستوجب وصول هذه الأمة أو هؤلاء الأشخاص أياً كانوا إلى ثمرات جهودهم.. إن جهود العاملين لا يمكن أن تضيع، ذلك حق ألزم الله عز وجل به ذاته العلية. فمن كان همه من وراء جهوده التي يبذلها نيل ثمراتها في الدنيا العاجلة، فإن حقاً له على الله عز وجل أن يوصله إلى ثمراتها، وأن لا يبخس شيئاً من جهوده التي بذلها، ثم ليس له في الآخرة عليها من جزاء أو نصيب. ألا ترى إلى هذا القرار المحكم في بيانه والتأكيد له: ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ ولكنه قال بعد ذلك، قاطعاً آمالهم عن أي نتائج لجهودهم تلك في الدار الآخرة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٦﴾ [هود: ١١/١٦].

فإذا تبيّنت موجز معنى هذه السنة التي يأخذ بها الله عباده، فلْتَعْلَم أنها الجواب عن سؤال طالما تردد على ألسنة كثير من الناس، أو قرأناه في كتابات كثير منهم. إن أحدهم يقول مستشكلاً، وربما ناقداً ومعترضاً: ها هي ذي المجتمعات الغربية، لا تقيم وزناً لدين، ولا يلتزم أفرادها بشيء من قيمه ومبادئه، وإنهم لغارقون في حمأة الفواحش والأوزار، ومع ذلك فإن أبواب الدنيا مفتحة لهم، علومهم الكونية متألقة، مغانمهم موفورة، أموالهم متنامية، حضارتهم مقبلة، قواهم راسخة.. هذا كله في حين أن العالم الإسلامي بمختلف دوله ومجتمعاته، يعاني نقيض ذلك كله، مع أن الناس في هذا العالم، أو جلّهم، مسلمون، يعتزون بانتمائهم الديني.

وخلاصة الجواب، هي ما قد أسلفته لك من بيان هذه السنة الربانية الواضحة في كتاب الله عز وجل. وإليك بعض التفصيل:

المجتمعات الأوربية، على اختلافها، إنما تقطف من كل ما يذكره المعترضون والمتسائلون، ثمرات جهودها. فالغنى الذي تتمتع به، ثمرة المصانع التي أنشؤوها والجهود التي بذلوها، واختراعاتهم وإبداعاتهم المختلفة، هي الأخرى ثمرة لأنشطتهم العلمية المتطاولة التي تجلت في جامعاتهم ورحلاتهم ومغامراتهم العلمية. وليست قواهم العسكرية إلا نتيجة طبيعية لتلك الأنشطة والجهود. هذا؛ إلى أن الدول الأوربية اليوم ليست لقيطاً في ساحة العلم والمعرفة؛ أي دون أن يكون لها انتماء إلى نسب من الحضارة والمعالم العلمية والمعرفية التالدة، بل هي تضع اليوم يديها من ذلك كله على ميراث راسخ كبير. ثم إن أنظمتها الاجتماعية والاقتصادية قائمة فيما بين أفرادها على أسس العدالة واحترام الذات، بقطع النظر عن ارتباطاتها أو عدم ارتباطاتها الدينية.

فما الذي تقتضيه السنة الإلهية التي شرحنا موجزاً عنها الآن، حيال هؤلاء الناس وجهودهم التي بذلوها والتي لا يزالون عاكفين على بذلها؟

إنها تقتضي أن يكرمهم الله بنتائج جهودهم في الدنيا، وأن لا يحرمهم من ثمرات أتعابهم، ألم يلزم الله ذاته العلية بذلك إذ قال: ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾؟

فلئن رأيت في مجتمعاتهم مظاهر القوة والغنى والأمن والكفاية التي يتمتع بها الأفراد هناك، فإنما ذلك يتم جزاءً وفاقاً، بموجب هذه السنة الإلهية، لجهودهم التي بذلوها والعدالة الاجتماعية التي يمارسونها فيما بينهم.

أما عالمنا العربي والإسلامي اليوم، فهو - كما نعلم جميعاً - لا يبذل معشار الجهود التي تبذلها المجتمعات الغربية في هذا الصدد (ولا بدّ أن أركز في هذا المجال على المجتمعات العربية أكثر من غيرها). إنه يركن، في أحسن الأحوال، إلى النشوة التي تطوف بكيانه اعتزازاً بما في الفتح الإسلامي وما أعقبه من صعود الأمة العربية الإسلامية قفزاً إلى ذرا التفوق العلمي خصوصاً والحضاري عموماً. ومن المعلوم أن هذه القفزة النوعية إنما تمت خلال ربع قرن فقط من تاريخ الهجرة النبوية، وهي القفزة الحضارية التي لا يزال الباحثون الغربيون يحارون في تفسيرها ويعجزون عن العثور على أسبابها وعواملها.

وسبب العجز والحيرة ما هو معلوم من أن الجزيرة العربية التي بعث فيها ومنها خاتم الرسل والأنبياء محمد عليه الصلاة والسلام،

كانت مناخاً للجهالة والأمية المطبقة، وكان أهلها مثال الفقر والتفرق، ومضرب المثل في الصراعات والخصام، كانت الجزيرة العربية آنذاك، باختصار، مهملة مغيّبة على هامش العالم والتاريخ.

فلما بعث رسول الله ﷺ فيهم، ودخلت الهداية إلى الحق في عقولهم قناعة ويقيناً، وهيمنت على أفئدتهم عاطفة وتعظيماً وحباً. أنجز الله عز وجل لهم سنة أخرى ألزم بها ذاته العلية في قرآنه الكريم (سيحين بيانها وشرحها فيما بعد)، وهي التي يعبر عنها بيان الله القائل:

-﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور: ٢٤/ ٥٥].

والقائل:

-﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾﴾ [القصص: ٢٨/ ٥].

فلما بايعوا الله على السمع والطاعة، بعد الإيمان به، وأنجزوا ما وعدوا الله عليه، ووفوا بالعهد الذي قطعوه على أنفسهم تجاهه، أنجز الله هذا الذي وعدهم به، ووفّى بعهده تجاههم كما وفوا بعهدهم تجاهه، محققاً فيهم قوله: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٢/ ٤٠]، فنقلهم طفرة من الركون إلى الجهل إلى تعشق العلم والتطلع إليه، أياً كان ومن أي مصدر جاء، وصعد بهم طفرة من حضيض الفقر والضعف إلى صعيد القوة والغنى. وهكذا سرعان ما تألق في مجتمعاتهم العربية علماء الفلك والهندسة والطب والكيمياء،

وتفتحت فيما بينهم مصادر الثروة والغنى، حتى أصبحت الأمة العربية مضرب المثل في السمو الحضاري والقوة المادية والمعنوية، بعد أن كانت كلمة «الأمة» معدومة وغائبة مما بينهم، وكانت مجموعة قبائل وبطون يضرب بها المثل في الجهالة والأمية والفقر والخصومة والشتات.

وإنا لنتساءل: ما هي وكم هي الجامعات التي تخرج فيها أولئك الذين بهروا العالم بعلومهم الهندسية والطبية والفلكية والفلسفية وغيرها؟ إننا نعلم جيداً دور الجامعات الكثيرة التي أقامت الإمبراطورية الرومانية واليونانية صروحها، فخرَّجت من خرجتهم من أفذاذ العلماء، بالجهود المستمرة المتطاولة؛ ولكن أين هي ما يقابلها أو يماثلها من الجامعات العربية التي ورثتها الخلافة الراشدة أو الخلافة الأموية من تاريخ الجزيرة العربية؟ أين هي الجامعات العربية التي خرجت أولئك الذين تعتز بهم الحضارة الإسلامية، من علماء الفلك والطب والهندسة والرياضيات وغيرها، ولما يمض على هجرة محمد ﷺ أكثر من أربعين عاماً؟!..

إنها السنة الربانية التي تعهدت لهم بإنجاز ذلك كله قفزاً، فوق قوانين الأسباب والجهود والمحاولات المتطاولة التي تدخل غمارها المجتمعات الأخرى. وهي السنة التي ما يزال قادة المجتمعات الغربية والباحثون الغربيون يعبّرون عنها باللغز التاريخي الذي تجلّى في أعقاب الفتح الإسلامي.

إذن ففرق ما بين المجتمعات الغربية اليوم، والمجتمعات العربية الإسلامية، أن الأولى تضع أيديها على ميراث راسخ من الجهود العلمية والمنجزات الحضارية إلى جانب ما تبذله اليوم من أقصى

ما تستطيع من الأسباب المادية لاستمرار ولتطوير ما تتمتع به من منجزات علمية وصناعية وإبداعية ومصادر القوة والغنى، وأما الثانية فإنما تتغنى اليوم - بأحسن الأحوال - بذلك اللغز الذي فسرته السنة الإلهية التي تحققت في حياة ذلك الرعيل الأول، وذلك عندما وفوا بالعهد الذي حملوه في ذممهم تجاه شرعة الله وأحكامه، فوفى الله في مقابل ذلك بالعهد الذي ألزم به ذاته العلية تجاههم، عندما قال: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ﴾ [البقرة: ٢/ ٤٠].

أما الجهود الآنيَّة التي نحاول أن نعثر عليها في حياة المجتمعات العربية، مقارنة بالجهود العظيمة التي تبذلها المجتمعات الغربية اليوم، على طريق التدرج في سلّم العلم والمعرفة والإبداع الحضاري، فلا نكاد نعثر منه إلا على ما يندى له الجبين.

إذن فقد عرفت الجواب عن السؤال الانتقادي الذي يطرحه اليوم كثير من الناس عن واقع المجتمعات الغربية مقارناً بالمجتمعات العربية والإسلامية.

إن عوامل الرقيّ الذي تتمتع المجتمعات الغربية به، تتمثل في جهود تاريخية بذلوها ولا يزالون يبذلونها، وقد علمت أن السنة الربانية تستوجب أن يمتعهم الله بثمرات جهودهم وأتعابهم.

أما عوامل الرقي الذي تبوأت صعيده الأمة العربية والإسلامية، في تاريخها الإسلامي الغابر، فهي وفاء الله بالعهد الذي التزمه تجاهها، مقابل وفائها بالعهد الذي ألزمها به، وذلك قفزاً فوق ضرورة المرور بالأحقاب وفوق كثير من العوامل المادية التي تستنفد الجهود.

وقد ظلت الأمة العربية الإسلامية تتبوأ هذا الصعيد الباسق طوال

مدة وفائها بالعهد، طوال مدة صدقها في الالتزام بتعاليم الله، طوال اعتزازها بشرعته ومنهاجه.

ولكن أين هو وفاؤها بالعهد اليوم؟ أين صدق انضباطها بتعاليم الله؟ أين اعتزازها بشرعته ومنهاجه؟

ألا ترى أنها قد أدارت ظهرها، قادة وشعوباً، لتلك العهود؟ ألا ترى أنها تعلن تبرّمها اليوم بشرعة الله ومنهاجه كما يتبرم الآكلون بطعام طال عليهم العهد به، وقد فسدت منه الرائحة والطعم؟!

ألا ترى دعواتهم إلى العلمانية والحداثة؟! ألا ترى إلى حوافز التغيير والتبديل للبقايا القليلة من المبادئ والأحكام الشرعية التي يتبرمون بها ويرون أن الزمن قد عفّى عليها؟ ألا ترى إلى المناهج التربوية التي كانت تنهض على دعامة الوازع الديني وغرسه في نفوس الأجيال، كيف غدت مبرّأة من الوازع الديني، إلا من شعارات وألفاظ واصطلاحات كلامية غدت أشبه ما تكون ببقايا أطلال من بناء.

إذن فقد نكثت الأمة العربية الإسلامية، ونقضت العهد، لم تفعل ذلك خفاء أو ضمناً، بل ها هي ذي تعلن ذلك صراحة، لا يستثنى منها في ذلك إلا قلة متناثرة هنا وهناك يطويها ويخفيها الضجيج.

فبأي حق أم بأي منطق يحتج هؤلاء الناس على الله الذي نكثوا عهده وخالفوا نهجه وتبرّموا بشرعه، أنه حجب عنهم التوفيق الذي متع به أسلافهم، وسلب عنهم الرقي الحضاري الذي أغدقه على الرعيل الأول من أجدادهم؟

إن سنة الله تجيبهم على احتجاجهم هذا، وتكشف عن السبب الواضح للتخلف الذي ران اليوم عليهم.. إن سنة الله التي نقرؤها في قرآنه تقول لهم: ها أنتم نبذتم العهد الذي أخذه الله عليكم، والذي

وفّى به أسلافكم بصدق وإخلاص فأورثهم ما تفتخرون به اليوم من صلة الانحدار منهم والانتماء إليهم، فحقَّ عليكم إذن أن تخلعوا الكسوة التي ألبسكم الإسلام إياها، وهذا ما قضت به سنة الله في عباده. ها أنتم تتبرمون بالسلّم الذي سما بكم إلى سدّة المجد، علماً وغنى وصناعة وقوة وتضامناً، فحق عليكم أن تهبطوا إلى المنحدر الذي كنتم فيه، وأن تبحثوا عن سلّم آخر يرقى بكم إلى ذلك الصعيد الذي تنشدون، ابحثوا عن ماضي جامعاتكم ومؤسساتكم العلمية وجهودكم الصناعية والفكرية، في العصر الذهبي الذي نسجه لكم الإسلام، فإن عثرتم على شيء من ذلك، فحاولوا أن تشدوا حاضركم المتخلف الهابط إلى ذلك الماضي المتوثب الصاعد، بأي وسيلة تملكون.

غير أنكم تعلمون أن أولئك العلماء الأفذاذ الذين تم نسج الحضارة الإسلامية على أيديهم إبان الفتوحات الإسلامية أو في أعقابها، إنما تم لهم ذلك، وفاء من الله للعهد الذي ألزم ذاته العلية به، مكافأة لإنجازهم العهد الذي ألزمهم به. تلك هي جامعاتهم ومؤسساتهم التي تخرجوا فيها، وهذا ما قررته سنة الله في عباده. وقد وضعتك أمام النص القرآني المعبّر عنها بما لا يدع مجالاً لريبة ولا لتأويل.

ماضيكم الأغرّ تحقق وترسخ بفضل الإخلاص للإسلام، وحاضركم المهين تسبب عن تبرّمكم بالإسلام والإعراض عنه. فإن كان لكم ميراث تعتزون به غير ذلك فارجعوا إليه واستنقذوا أنفسكم به. وصدق الله إذ يخاطبكم ببيانه المعجز: ﴿لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/ ١٣].

أما سؤالكم القائل: فهلّا ماثَلَتنا وشاركتنا المجتمعات الغربية فيما نعانيه من تخلف وهوان، وقد علمت الدنيا كلها أنها أشدّ منا إعراضاً عن الدين وتحرراً من قيمه؟ لئن صح أنا خلعنا اليوم رداء الإسلام فما أطول الماضي الذي ارتدينا فيه رداءه، أما المجتمعات الغربية فلم تحدث نفسها بارتدائه في يوم من الأيام!

فالجواب ما قد تم بيانه، من أن التقدم الذي تتمتع به المجتمعات الغربية ثمرة لسلسلة من الجهود المتواصلة التي توارثتها الأجيال، اعتمدت في ذلك على ذاتها وعلى ما أراقته من عرق في طريق جهودها، ولم تنطلق إلى ذلك من عهود دينية التزمتها ثم تحللت منها. وقد تبيّن لك من السنة الإلهية التي نحن بصدد شرحها، أن الله لا يضيع جهود العاملين أياً كانوا، فإن كانوا يبتغون بها نعيم الآخرة، ادّخره الله لهم إلى ذلك الميقات، وإن كانوا يبتغون بها نعيم الدنيا، آتاهم الله ثمارها في حياتهم العاجلة. ألم يقل: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾﴾ [هود: ١١/ ١٥]؟!

أما أنتم، يا من تقتنعون من إسلامكم بشرف الانتماء والاعتزاز بما كان عليه الآباء والأجداد، فلا أنتم بذلتم من الجهود والأنشطة المادية والأسباب الطبيعية ما بذلته شعوب المجتمعات الغربية، ولا وفيتم بالعهد الذي ألزمكم الله به، كي يوفي بالعهد الذي التزم به تجاهكم، كما وفى به تجاه ذلك الرعيل الأول من أسلافكم. فبأي حق تعترضون على الله في إعراضه عنكم وفي العدالة التي يعامل بها أولئك العاملين لدنياهم من أندادكم الغربيين؟!

إن شأنكم في إعراضكم عن الله واستهانتكم بوصاياه وتعاليمه، مع تطاولكم إلى الاعتراض على سننه ومطالبته بما لا حقَّ لكم في مطالبته، كشأن أسرة زجّها البؤس إلى الأرض العراء محرومةً من ضروري الطعام والكساء والمأوى، واكبها حسن حظٍّ على غير ميعاد، إذ مرّ بها ثريّ ذو مروءة عالية ورحمة بالغة وكرم عريض، فما إن وقف على شأنها حتى أنهضها من تلك العراء، وأسكنها في دار فارهة، وأغدق عليها من أنواع النعيم كل ما هي محرومة منه، وأجرى لها جراية دائمة مجزئة.. وما إن مرت مدة من الزمن حتى طافت نشوة الدعة برؤوس أفراد الأسرة، وما هي إلا أيام أخرى حتى حجبتها تلك النشوة عن القلب الذي رقّ عليها وعن اليد التي أكرمتها واستنقذتها، فراحت تتنكر لصاحب ذلك الفضل، وأمعنت في التسامي على مروءته ومننه!.. فساقه المنطق وواقع الحال إلى رب تلك الأسرة، يطرق عليه باب داره التي أسكنه فيها، فلما خرج الرجل إليه، قال له الشهم الودود والمتفضل عليه: يبدو، فيما بلغني من الحال التي آل أمركم إليها، أنكم تجاوزتم بحمد الله مرحلة ذلك البؤس والاحتياج، إذن بوسعكم، وقد استغنيتم، أن ترحلوا من داري هذه إلى النعمة التي استغنيتم بها.

واستيقظ الرجل من نشوة الدعة التي كانت قد هيمنت عليه قائلاً: فما لك لا تخرج الساكنين في هذه البيوت الأخرى المتناثرة من حولي أيضاً؟

أجابه الرجل قائلاً: إذن أكون ظالماً لهم مغتصباً لحقهم. إن كلًّا من هؤلاء الناس بذل جهداً كبيراً في امتلاك الأرض، ثم واصل الجهد ولم يقصر في الإنفاق حتى بنى لنفسه فوقها الدار، ثم بذل

المزيد من المال لتوفير الرياش والأثاث. فبأي حق أخرجهم من بيوتهم التي بنوها وحرمهم من ثمرات جهودهم التي عرقوا وتعبوا في سبيلها؟

تلك هي قصتنا نحن، الأمة العربية الإسلامية، اليوم مع الله، لن تجد بينها وبين هذا المثل الذي ضربته لك أي اختلاف.

لقد سطر التاريخ وقرر المنطق وأثبتت الحقيقة أن الأمة العربية لم تنهض من تيه الجهالة ووهدة الضياع والتخلف إلى صعيد التقدم والوجود الحضاري إلا عن طريق تعلقها بسلّم الدين أي الإسلام. وإلّا فقل لي أين جامعاتها ومعاهدها ومؤسساتها العلمية والثقافية قبل ذلك؟

هذا ما أدركه ووعاه جيداً عمر بن الخطاب عندما قال لأبي عبيدة وقد وصل إلى مشارف الشام: «نحن قوم أعزنا الله بالإسلام، فمهما طلبنا العز بغير ما أعزنا الله به أذلنا الله».

وهو ما قرره ابن خلدون علمياً في مقدمته عندما عقد فصلاً وجعل عنوانه: «فصل في أن العرب لا يحصل لهم التمكين إلا بصبغة دينية يجتمعون عليها وأثر عظيم من الدين في الجملة».

❊ ❊ ❊

وصفوة القول أننا إن أمعنّا التبرم اليوم بالإسلام الذي أنهضنا من كبوة التخلف إلى ذروة التقدم بالأمس، فلسوف تكون عاقبتنا عاقبة الأسرة التي طافت برأسها نشوة الكسل المتنعم الفاره، إذ أعادتها سنة الله إلى حالها وموطنها الأصلي من البؤس والأرض العراء.



قراره القائل:
سخَّر لكم ما في السموات وما في الأرض

التسخير في اللغة يعني التذليل للخدمة. والفرق بين المسخَّر والمستأجَر أن الأول يكلّف بالعمل دون أجرة والثاني يعهد إليه العمل بأجر يُتفق معه عليه.

وقد قضى الله عز وجل أن يجعل كثيراً من مكوّناته، وهي التي تحيط بالإنسان، مسخّرة لخدمته، وهي سنة من سنن الله في مكوناته وعباده أعلن عنها ببيان صريح في كثير من آي كتابه المبين.

من أعمها وأشملها تعبيراً عن ذلك قوله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٣١/ ٢٠].

ومنها قوله سبحانه: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [النحل: ١٦/ ١٢].

ومنها ما أخبر عنه من تذليله الأنعام وكثيراً من الحيوانات لخدمة الإنسان وتحقيق احتياجاته في مثل قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا

رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [يس: ٣٦/ ٧١-٧٣].

ومنها قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ١٠].

إذن، فنحن أمام سنة من سنن الله الماضية في مكوناته وعباده إلى قيام الساعة، وهي إعلانه عز وجل عن تسخيره ما في السماوات والأرض مما يحيط بالإنسان، لتحقيق مصالحه وإنجاز احتياجاته.

تأمل في كلمات ثلاث تدور مع البيان القرآني في هذه الآيات، وهي: التسخير، التذليل، التمكين، تجدها تعبّر، فيما يقرره علماء اللغة، عن أبلغ معاني الإخضاع والإخدام. فهي تقرر بأن الله قد أخضع المظاهر الكونية المختلفة للإنسان أيما إخضاع.

ثم إن هذه المسخرات الكونية تنقسم إلى قسمين:

قسم منها ينهض بخدمة الإنسان وتحقيق مصالحه، دون حاجة إلى أي جهد يبذله الإنسان لذلك، من ذلك حركة الأفلاك ودوران الأرض، وهبوب الرياح، والنّمو الذاتي للنبات والأشجار التي تفيض بها الغابات.

وقسم آخر مهيأ ومعدّ لاستخدام الإنسان له طبق مصالحه المختلفة المتطورة. ولكنّ فائدته العملية للإنسان متوقفة على أن يُقبل إلى هذا القسم بالاستخراج أو التصنيع أو التشغيل أو التطوير. فمعادن الأرض مهيأة لمصلحة الإنسان وتحقيق متطلباته، والمياه الجوفية معدة في مخازنها لاستخراجها وتوجيهها لسقاية الزرع أو لحاجات الشرب أو نحو ذلك، والنباتات المتنوعة التي يخضر بها وجه الأرض تتضمن أدوية شتى لأمراض شتى، تنتظر من يتأملها

فيجربها، فيستخرج منها خصائصها الطبية ومزاياها المتنوعة. والتربة الطينية خاضعة للاستنبات فيها، ولكنها تنتظر من يفلحها ويودع فيها البذور ويتعهدها بالسقيا.

فهذان القسمان من المسخرات، كانا ولا يزالان موجودين تحت يد الإنسان وبصره، منذ فجر الوجود الكوني إلى هذا اليوم.

وكان الإنسان منذ أقدم العصور إلى هذا اليوم، يتعامل مع هذه المسخرات بقسميها، ينال مصالحه وحاجاته من القسم الأول دون أي جهد أو استخدام، ويقطف ثمرات جهده واستخدامه من القسم الثاني اعتماداً على تجاربه التي توصله إلى نتائجها، أو على مداركه العلمية التي يتمتع بها، هذا ما تقوله الحقائق العلمية وتؤيده وقائع التاريخ المرصودة.

أما ما يؤكده الأسطوريون، فهو أن الإنسان عاش دهراً لا يتمتع بأي فكر أو عقل، وأنه كان خلالها متوحشاً يأوي إلى الكهوف، ويعيش في الغاب، وأنه كان في صراع مع الطبيعة ويظل يعاني الخوف من أحداثها، ويستوحش من رعودها وبروقها.. ثم إنه انخرط في بوتقة المجتمع الإنساني، بواسطة المشاعر التي ظلت تهتاج في كيانه بحثاً عن الطعام واللباس والمأوى، فأورثه ذلك عقلاً يفكر به ولغة ينطق بها، واكتشافاً لأنظمة الطبيعة وعلومها، فعندئذ سجل التاريخ تغلب الإنسان على تحديات الطبيعة وألغازها، وأصبح يسوقها بعد أن كان يفرّ منها.

إن هذه الأسطورة تعني أن الإنسان، من حيث هو جنس أو نوع، انطلق في قدراته الذهنية والفكرية واللسانية من نقطة الصفر، ثم إنه سار في طريق التطور صعداً ولا يزال.

وهذا يناقض ما يجمع عليه علماء الاجتماع والتاريخ من أن الإنسان نشأ اجتماعياً منذ فجر وجوده، وأن المجتمعات الإنسانية كانت ولا تزال تدخل في دورات حضارية تنشأ ضعيفة لَدْنةً، ثم إنها تقوى وتشتد، حتى تبلغ الذروة، ثم إنها تعود إلى التراجع والضعف، الشأن فيها كشأن الإنسان ومسيرة حياته. هكذا يقرر ابن خلدون في مقدمته، وهكذا يؤكد العالم الألماني «شبنجلر»، وهذا ما تؤيده الوقائع والوثائق.

في كتاب «مثلث برمودا» تأليف العالم الأمريكي «تشارلز بيرلتز» فصْلٌ عنوانه: مفاجآت وغرائب ما قبل التاريخ، تحدث فيه عن مظاهر حضارات مغرقة في القدم لم يبلغ إليها شأو الإنسان اليوم. من ذلك أحجار يبلغ وزن الواحدة منها أكثر من ٢٠٠ طن أُثبتت منذ أقدم العصور على قمم يبلغ ارتفاعها أكثر من ١٥٠٠ قدم في البيرو وفي مناطق أخرى!.. كيف تم نقلها من مسافات شاسعة، بعد أن اقتلعت من داخل الجبال والأودية؟ كيف تم رفعها وتثبيتها فوق تلك القمم؟!.. أسئلة يصعب علينا العثور على أجوبة لها رغم كل ما لدينا من الخبرات الهندسية.. ومن ذلك بقايا أرصفة لشوارع وأبنية من مدن، ذات نقوش وبصمات حضارية، تم اكتشافها في أعماق البحار.. ومن ذلك ما تم العثور عليه في قبور كولمبية قديمة من نماذج لطائرات ذات أجنحة مزدوجة، تم فحصها وقام بدراستها عدد من الطيارين المهندسين الذين لم يشكّوا في أن حضارات إنسانية قديمة جداً سادت دهراً طويلاً ثم بادت! ومن ذلك رسوم لوشائع كهربائية تعود إلى ما قبل آلاف السنين عُثر عليها في معبد من معابد مصر. ومن ذلك أسرار علمية غامضة ينطوي عليها الهرم الأكبر في مصر، لا تزال المساعي متجهة إلى العمل على كشفها.

يقول «تشارلز» مؤلف الكتاب، بعد عرض هذه النماذج وغيرها:

«إن مثل هذه الظواهر لحضارات عالمية أو حضارات سادت، كنا نظن أننا على علم بها، يبدو مؤشراً إلى أن بعض التطور الذي كان لديهم شبيه بما لدينا من علوم واختراعات، أو أنهم قد تطوروا في مجالات أخرى لسنا على معرفة جيدة بها»(١).

إذن فالسنة الإلهية التي أعلن عنها كتاب الله عز وجل، والتي تتضمن بيان تسخير الله الكون للإنسان، ماضية نافذة منذ أقدم العصور، وإن علماء الاجتماع والتاريخ ليقرون بما أكده القرآن من أن في الأمم الغابرة من كانوا يتمتعون بقدرات وإمكانات لم تبلغها إمكانات رواد الحضارة الإنسانية اليوم.

وصدق الله القائل: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ [الروم: ٣٠/ ٩].

وصدق الله القائل: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾﴾ [مريم: ١٩/ ٧٤].

وبهذا نعلم أن علاقة ما بين الإنسان وهذه المكونات، لم تكن يوماً ما علاقة تحدٍّ وصراع، مهما أوغلت بخيالك في الماضي البعيد، أو اقتحمت بفكرك مع الإنسان إلى أغوار تاريخه السحيق. فما صارعها الإنسان في أي عهد من الدهر ولا صارعته، وما حجب عنها يوماً ما بغير حجاب جهله وغفلته.

---

(١) انظر: مثلث برمودا: لتشارلز بيرلتز، ترجمة خليل فضل عبود، بدءاً من فصل «مفاجآت وغرائب ما قبل التاريخ»، ص ١٣٥ فما بعدها.

ولذا؛ فليس لما يعبّر به بعض السطحيين أو بسطاء الباحثين من كلمة «تحديات الطبيعة» أي مدلول في ميزان العلم أو الوقائع والأحداث التاريخية، فلا الإنسان عاش يوماً ما محروماً من مزية العقل والفكر، ولا التي يسمونها «الطبيعة» وقفت أمام الإنسان تقارعه بأي تحدٍّ أو تمرّد، بل إن نَسَبَ القُربى قائم ومتين بينهما، منذ أن أبدع الله كلتا الخليقتين. وليس ثمة إلا شرط واحد لتغذية هذا النسب القائم بينهما واستخراج ثماره، ألا وهو إعمال العقل والفكر، واستخدام وسائل البحث والعلم.

على أن هذا الشرط ليس وقفاً بدوره على مؤمن دون كافر، أو صالح دون فاجر، بل هو عام شامل للناس جميعاً بقطع النظر عن أديانهم وعن قربهم أو بعدهم عن الله عز وجل.

فكل من مزق حجاب الجهل بينه وبين هذه المكونات، أو ما يسمونه هم بالطبيعة، عن طريق أسباب الدراية والعلم، خليق به أن يستدرّ الكثير من خيراتها، وأن يقف على الكثير من أسرارها، أياً كانت هويته ومذهبه.

وكل من قبع تحت خباء جهله، وأغمض العين عن النظر، وأوقف العقل عن التأمل، جدير به أن يبقى في غفلة عن الدنيا التي تطوف به أياً كانت نحلته ودينه.

* * *

غير أن هذه السنة الإلهية لا تشمل سائر المكونات التي أبدعها الله عز وجل، فإن فيها ما لا سبيل للإنسان إليه معرفة ولا استخداماً ولا تغييراً أو تطويراً.

فالروح من المكونات، ولا سبيل للإنسان إلى معرفتها، وليس بينها وبين الإنسان سبيل تسخير أو استخدام، والمجرّات والأفلاك العلوية التي أنبأنا القرآن عنها ودلّنا العلم على وجودها، ليس بينها وبين الإنسان نسب معرفة ولا تسخير. والجانّ من المكونات التي خلقها الله عز وجل، وليس بينها وبين الإنسان صلة تلاق ولا معرفة أو تسخير.

ولتعلم أن هذا الاستثناء الذي أوضحه البيان الإلهي في كثير من آي الكتاب المبين، من عموم الآيات التي تقرر تسخير الله الكون للإنسان، ينطوي على تنبيه بأن الإذلال الذي أخضع الله به المكونات لمصلحة الإنسان وسعيه، إنما رُتِّب وفق إرادة ربانية ونظام لا يتبدل، أي فلا يأتي التسخير والتمكين والإذلال إلا ضمن سلطان هذا القرار الرباني، ومن ثم فلا حيلة للعلوم والمعارف والاكتشافات مهما دقّت أو كثرت، في أن تضيف إلى هذه المسخرات غيرها، أو أن تتجاوز بها الحدود التي قضى بالوقوف عندها قرار الله وحكمه.

إذن فمفاتيح التسخير ليست متمثلة في علوم كونية طبيعية تَمتَّعْنا بها، وحُرم الناس الذين كانوا قبلنا منها؛ بل إن مفاتيحه سنة الله وقراره، وهما قديمان ماضيان منفذان في حياة الأجيال الإنسانية كلها. وقابلية الإنسان اليوم هي ذاتها التي كانت بالأمس، فطرةُ الله في عباده لم تتبدل، وشهادتُه القائلة: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العلق: ٩٦/٥] لم يتحيز بها الله للاحقين دون السابقين، ولا لأجيالٍ دون أخرى.



عقاب الدنيا للمؤمنين المستهترين .. وعقاب الآخرة للجاحدين

مما ينبغي أن تلاحظه في خطاب الله للإنسان، أنه يوجه خطابه آناً للناس جميعاً فيخاطبهم بقوله: يا أيها الناس .. ويوجه خطابه آناً آخر للمؤمنين منهم، فيقول: يا أيها الذين آمنوا. فمتى يعُم بخطابه الناس جميعاً، ومتى يخصّ به المؤمنين دون غيرهم؟

يلاحَظ أن البيان الإلهي عندما يتضمن الأمر بمعرفة الإنسان مملوكيته وعبوديته لله، والدعوة إلى معرفة خالقية الله له ومعرفة أن محمداً رسول الله إليهم، يوجه خطابه إلى الناس جميعاً، فهو يقول مثلاً:

﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٥٨].

ويقول: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ [يونس: ١٠/ ١٠٨].

ويقول: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢١].

ويقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ [الحج: ٢٢/ ٥].

كما يلاحظ أنه عندما يتضمن أمراً بأي من الواجبات السلوكية أو نهياً عن شيء من المحرمات والفواحش، يوجه خطابه عندئذ إلى المؤمنين خاصة..

فهو يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ ۚ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ٥/ ١].

ويقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾ [المائدة: ٥/ ٦].

ويقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [المائدة: ٥/ ٩٠].

وإنها لقاعدة ثابتة في كتاب الله قلّما تتخلف، أو لعلّها لا تتخلف.

فما المعنى الملاحظ في ذلك؟

المعنى الملاحظ فيه أن الناس كلهم مأمورون من قبل الله تعالى، عن طريق الرسل الذين أرسلوا إليهم، بأن يدينوا بسلطان العبودية لله، وأن يستيقنوا بأن لهم إلهاً واحداً لا ثاني له ولا شريك له، وأنه المتفرد بخلقهم وخلق السماوات والأرض وما بينهما، وأن الناس جميعهم سواسية في ميزان القرب والبعد من الله لا يتفاوتون إلا بالتقوى والعمل الصالح.. ومن ثم فإن الخطاب الإلهي ينبغي أن يشملهم جميعاً بهذا التعريف وبالتكليف المنبثق عنه.

أما فروع الأحكام السلوكية التي يتم الخطاب بها بعد الاستجابة

لمضمون الخطاب الأول، من الإيمان بالله والدينونة لسلطان العبودية لله، والدخول في عقد الطواعية له، فإنما يقتضي المنطق أن يخاطب بها الذين آمنوا بالله، ودخلوا في عقد الانقياد لسلطانه وحكمه، ودانوا بحقيقة العبودية له.

إذ إن المعلوم بداهة أن من انتهى عن المحرمات التي حذر الله منها، وانقاد للواجبات التي أمر بها، دون أن يؤمن به، ودون أن يدخل في عقد العبودية له إلهاً واحداً لا شريك له، ودون أن ينقاد لشرعته وأحكامه، لا يعدّ مطيعاً لله تعالى في شيء من ذلك، وإنما هو منقاد لقناعاته الشخصية أو للقرارات والأحكام التي يأخذ الناس بعضُهم بعضاً بها، فلا يستحق ثواب الله فيما أداه من واجباته ولا يتعرض لعقاب الله فيما ارتكبه من محرماته.

وقد قرر الفقهاء أن الكافر غير مكلف بفروع الأحكام السلوكية في الدنيا، لأنها لا تأخذ معنى الاستجابة لحكم الله وأمره، إلا بعد الإيمان به، والإيمان بالشرع الذي خاطبه الله به. وهذا شيء واضح.

ولكنه إذ يعاقَبُ يوم القيامة على الإعراض عن الإيمان به والتصديق برسله وكتبه، يعاقب على ارتكابه المحرمات وإعراضه عن الواجبات تبعاً لذلك.

ما النتيجة التي ننتهي إليها بعد هذا الذي تمّ بيانه؟

النتيجة هي أنه لا الأعمال المحمودة التي يقوم بها الجاحدون بالله وكتبه ورسله، في الغرب، ولا الموبقات ومختلف المحرمات التي يرتكبونها، محل اعتبار عند الله وفي ميزانه. أما الأعمال المحمودة فلأنهم إنما يستجيبون فيها لقناعاتهم الشخصية أو لمواضعاتهم

القانونية، وأما ارتكابهم الموبقات والمحرمات فلأنهم لم يدخلوا في عقد مع الله، يتمثل في إقرارهم بالعبودية والمملوكية لله، ومن ثم يتمثل في الخضوع لسلطانه وحكمه، حتى يلاحقهم في الدنيا بتنفيذ ما لم يؤمنوا به.

فإذا رأيت الناس في المجتمعات الغربية يأخذون حظوظهم في ارتكاب المحرمات والفواحش، متحللين من سائر الأوامر والواجبات الدينية، دون أن ينالهم على ذلك من الله أي ابتلاء أو عقاب: حياتهم رغيدة، وأرزاقهم موفورة، ونعيمهم مستمر، أمطارهم سخية وأرضهم معطاءة، فلا يهولنّك ذلك، ولا ترَيَّن فيه ما يَريبك بعدالة الله في معاملته مع عباده؛ إذ ليس بينهم وبين الله عقد أبرموه، حتى يلاحقهم الله ويطالبهم بتنفيذ مقتضاه ويعاقبهم على التحلل منه.

إن العقاب الذي يستحقونه إنما هو على إعراضهم عن الاستجابة لدعوة الله لهم إلى معرفة هوياتهم عبيداً مملوكين لله، وإلى الخضوع لسلطان ربوبيته وألوهيته لهم، وقد قضى بأن يدخر عقابه لهم على ذلك إلى يوم البعث يوم يقوم الناس لرب العالمين.

ألم يقل: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾﴾ [الحجر: ١٥/ ٣].

ألم يقل عنهم: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١٩٦-١٩٧].

ألم يقل عنهم: ﴿فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾ [القلم: ٦٨/ ٤٤-٤٥].

وإذا رأيت تحذير الله للمؤمنين دون غيرهم من مصائب وابتلاءات قد يأخذهم بها، إن هم لم يَفُوا بالعهد الذي أخذوا أنفسهم به، وذلك في مثل قوله: ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٧٥]، وفي مثل قوله: ﴿أَوَ لَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١٦٥]، وفي مثل قوله: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ٢٨]، وفي مثل قوله: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤/ ١٢٣]، وفي مثل قوله: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الشورى: ٤٢/ ٣٠]. أقول: إذا رأيت تحذير الله للمؤمنين دون غيرهم، في مثل هذه الآيات من مصائب قد تنزل بهم في دار الدنيا، فذلك لأنهم نكثوا عهداً تجاه الله كانوا قد ألزموا أنفسهم به، دون أن تخيفهم تحذيرات الله في مثل قوله: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾﴾ [المائدة: ٥/ ٧] وفي مثل قوله: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٢/ ٤٠]، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ ۚ﴾ [المائدة: ٥/ ١]، وفي مثل قوله وهو ينذر المؤمنين بعقاب وبيل إن هم لم يقلعوا عن الربا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٧٨-٢٧٩]، وفي مثل قوله، وهو يحذر المؤمنين العاصين المستمرئين لكفران النعم والإعراض عن الشكر عليها، من أن يذيقهم لباس الجوع والخوف: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً

كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [النحل: ١٦/١١٢].

وليس لك أن تتوقع ملاحقة الخطاب الرباني بمثل هذا التهديد، لأناس لم يدخلوا مع الله في عقد الإيمان به والانقياد لربوبيته وحكمه فأخذوا حظهم من الأهواء والمحرمات والإعراض عن الواجبات، كما لا ينبغي أن تتوقع نزول العقاب الرباني بهم في دار الدنيا، إلا إن كنت تتصور أن انقيادهم للواجبات السلوكية مقبول ومثاب عليه من الله تعالى حتى مع كفرانهم وجحودهم به، وأن ابتعادهم عن المحرمات مأجور من الله عليه حتى مع عدم إيمانهم به ومع عدم اكتراثهم بشرائعه، ولا يتصور ذلك إلا محجوب عن الدين وحقيقته غائب عن القرآن وعن سنن الله في عباده، لم يطرق سمعه قول الله عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ﴾ [النور: ٢٤/٣٩]، أو قول الله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: ٢٥/٢٣].

* * *

وبعدُ، فإن فيما تم بيانه من شرح هذه السنة النبوية الربانية، جواباً كافياً مقنعاً، فيما أحسب، للذين يطيلون ألسنتهم بالنقد والاستنكار، كلما حذرنا مجتمعاتنا الإسلامية من الولوغ في المعاصي والاستعلان بها والاستخفاف بشأنها، مذكرين بالمصائب والابتلاءات المختلفة التي قد تحيق من الله بنا، عقاباً عاجلاً لارتكاب تلك المحرمات، على ذلك الوجه من الاستعلان بها والاستخفاف بشأنها.

يقول أحدهم منتقداً ومستنكراً: ها هي ذي المجتمعات الغربية غارقة في الرذيلة وأنواع الفواحش والمحرمات، فلماذا لا يحيق بها شيء من هذا العقاب العاجل الذي تقول؟ لماذا لا تحلّ بهم المصائب والابتلاءات التي تحذرنا منها بسبب معاصينا وهي لا تبلغ معشار ما هم منغمسون فيه من الفواحش والمحرمات؟!

الجواب منصوص عليه في كتاب الله تعالى، وقد تم بيان شرحه وتفصيل القول فيه. إنه جل جلاله لم يقل: يا أيها الناس اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا، ولكنه قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ﴾ [البقرة: ٢/٢٧٨]، لم يقل يا أيها الناس إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان، ولكنه قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ [المائدة: ٥/ ٩٠].. لم يقل: يا أيها الناس أوفوا بالعقود، ولكنه قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ [المائدة: ٥/ ١].

ومع ذلك فإن من سنن الله في عباده أن المجتمعات الشاردة عن هدي الإيمان والراكبة رأسها في الجحود، إذا استمرأت أنواع المعاصي والظلم وطاب لها الولوغ والمضيّ في ذلك، فإن الله عز وجل يفاجئها بعقاب قاصم انتصاراً للمظلومين ورحمة بهم، في ميقات لا يعلمه إلا هو.

وإنها لَسنّة ربانية مقررة في كتاب الله تعالى، سنبينها ونشرحها عندما يحين ميقاتها بمشيئة الله وتوفيقه.



يحبّ العدل ويجزي به ولو كان العادل كافراً

ويكره الظلم ويعاقب عليه ولو كان الظالم مسلماً

والمراد هنا الجزاء في الدنيا، بقطع النظر عن يوم القيامة.

أما محبة الله للعدل، فيدل عليها كراهيته لنقيض العدل وهو الظلم، وذلك في قوله عز وجل: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥٧﴾ [آل عمران: ٣/ ٥٧]، وفي قوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٤٠].

ويدلّ عليها أمره الناس بالعدل وذلك في مثل قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِۚ﴾ [النحل: ١٦/ ٩٠]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ﴾ [المائدة: ٥/ ٨]. وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰۖ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٥٢].

وأما كراهية الله للظلم، فحسبك من ذلك قوله عز وجل منبئاً عن ذاته: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ قالها مرتين في سورة واحدة وهي سورة آل عمران.

وإن شئت فحسبك من ذلك ما شرطه الله لجدوى الإيمان، من عدم امتزاجه بالظلم.

لعلك تقول: ولكن صح فيما رواه البخاري وغيره أن الشرك أسوأ أنواع الظلم فلعلّ المراد هنا بالظلم الشرك وحده.

والجواب أن الشرك هو أسوأ أنواع الظلم حقاً، ولكن ذلك لا يمنع دخول بقية ألوان الظلم في الكلمة هنا، بموجب مدلولها اللغوي المعروف. إذ التنوين الذي جاء بكلمة الظلم هنا نكرةً، جعلها من قبيل اللفظ المطلق. والشأن فيه أن يحمل على إطلاقه، ونظراً إلى أن الكلمة جاءت في سياق النفي، إذن لا بد أن تشمل بإطلاقها كل أنواع الظلم.

إذا تبين هذا، فاعلم أن محبة الله للعدل أعم من التكليف به، وأن كراهية الله للظلم أعم من النهي عنه. فإن الله يحب العدل من الناس كلهم، ولكن لم يكلف به الجاحدين، لما علمت من أن الكفار غير مكلفين بالفروع السلوكية من الأحكام في دار الدنيا، وإن الله يكره الظلم من الناس كلهم ولكن لم ينه الجاحدين والكافرين عنه نهي تكليف، لما علمت من السبب ذاته.

إذن فإن الله يحب العدل إذ يشيع في المجتمعات الغربية، وإن كانت لا تقيم للدين وزناً. وأنت تعلم أن قوانين المجتمعات الغربية ترعى العدالة السارية فيما بين أفرادها إلى حدّ كبير، بقطع النظر عن مواقف قادة تلك المجتمعات، من الدول والجماعات الأخرى.

إذن فلا بدّ أن يجزي الله عليه الناس القائمين به في دار الدنيا، وإن لم يكونوا مكلفين به فيما بينهم بموجب الوازع الديني. ولا معنى لمحبة الله سَرَيان العدل في مجتمع ما، إن لم تكن ثمرتُه مجازاةَ القائمين عليه والملتزمين به سواء أطلبوا الجزاء أو لم يطلبوه، ولكنها مجازاة محصورة في دار الدنيا فقط، كما هو معلوم.

وأساس هذه السنة أو هذا القانون الذي ألزم ذاته العليّة به، قوله تعالى عن هؤلاء الجاحدين: ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ [هود: ١١/١٥]، وقد أمر الله جل جلاله عباده المؤمنين بهذا الذي ألزم به ذاته فقال: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ وكلمة الناس تشمل المؤمنين وغيرهم.

وإذن فإن الله يكره الظلم إذ يشيع في أي مجتمع من المجتمعات، وإن كان الظالمون فيها مسلمين. وذلك أن الله جل جلاله لا يرضى أن يكون إسلام المسلمين من عباده شفيعاً لهم في ارتكاب الظلم واستلاب حقوق الآخرين. وبعبارة أخرى: تعالى ربنا وتنزه عن أن يرشوه مسلم بإسلامه، في مقابل أن يصفح عما قد يرتكبه من المظالم في حق الآخرين.

وإذا كان من سنة الله في عباده أن يجزي المجتمعات التي يشيع فيها العدل، في دار الدنيا، ولو كان أهلها كافرين، فإن هذه السنة ذاتها تقضي أن يعاقب المجتمعات التي يشيع فيها الظلم، في دار الدنيا، ولو كان أهلها مسلمين.

فلا يقولن قائل إذن: ما لِرَبِّنا يكرم المجتمعات الغربية، وهي لا تقيم لدينه وزناً، ولا تتقيد من شرعه بحلال ولا حرام، يعبّد أمامها مسالك التقدم ويوفر لها القوة ويحقق لها مصادر الثروة والغنى، في حين أنه يعرّض مجتمعاتنا الإسلامية للفقر والضنك ويزجّها في أودية التخلف، وهي تعلن إسلامها وتعتز بانتمائها إلى تاريخها الإسلامي؟..

أجل، لا يقولن قائل هذا، فإن ما تتباهى به الدول العربية من

انتمائها التقليدي إلى الإسلام، لم يحجز أكثرها من ممارسة الظلم أشكالاً وألواناً في حق شعوبها، يدخل في ذلك الظلم الاقتصادي والاجتماعي والتفريق الطائفي والانتقاص من الحريات الشخصية.. وإن ما تعلنه الدول الغربية من تحررها من سلطان الأديان، وما يصرّ عليه كثير منها من علمانية الدستور والمنهج، لم يمنعها من ممارسة أقصى ما تستطيعه من العدالة في التعامل مع شعوبها. ينبئ عن ذلك ضماناتها الاجتماعية الجادّة، على كل المستويات، ويدل على ذلك ما تتمتّع به قوانينها من هالة القداسة التي تجعل الفئات والطبقات على تفاوتها أمام سلطانها وهيمنتها سواء.

ملكية الأرض أو الدار أو المتاع، لا تُنتزع إلا لضرورة، فإن وُجِدت الضرورةُ التي يقرّها القانون، توقف الانتزاع على إنصاف المالك واسترضائه وتحكيم القانون في ذلك .. الحرياتُ الفكرية والدينية والاجتماعية والسياسية موفورة ومحترمة، الضرائبُ والرسوم ليست إلا أغطيةً لخدمات جادة دائمة.

ليس في مجتمعاتنا العربية من لا يعلم أن كثيراً من الأُسَر، تلجأ من بؤس البطالة التي يعاني منها ربها، إلى دولة ما من الدول الأوربية، فما تكاد تمضي مدة يسيرة حتى تنال حق الإقامة فيها، وعندئذ يمنحها القانون حق جراية مالية تُعطى شهرياً لكل من رب الأسرة وبقية أعضائها، بقطع النظر عن تبعيته وشأنه ما دام، أي رب الأسرة، عاطلاً عن العمل، لا يجد مورداً يقع منه ومن أهله موقع الكفاية. وربما تظاهر أحدهم بالبطالة، وهو يمارس عملاً في الخفاء، فأغضى المسؤولون الطرف عنه ولم يلاحقوه بمتابعة ولا تحقيق!!..

هذا الإنصاف من الناس بعضهم لبعض، أمرٌ يحبه الله عز وجل، ويجزي عليه في الدنيا أياً كان الناس الذين يمارسونه، فإن كانوا من المعرضين عن دينه وتعليماته أجزل لهم الأجر على ذلك في الدنيا، كما بين في آيات ذكرت لك بعضها قبل قليل، ولكن ليس لهم على ذلك في الآخرة من نصيب.. وإن كانوا من المؤمنين به الملتزمين بأوامره وتعليماته، أجزل لهم الأجر على ذلك في كل من الدنيا والآخرة، أما إن كانوا من المتجملين بالإسلام انتساباً، والمعرضين عنه سلوكاً ومنهجاً، والمنحطّين في ظلم شعوبهم والممعنين في الإفساد في الأرض، فأولئك هم الذين قد لا تعثر لهم على نصيب ما من الأجر، لا في الدنيا ولا في الآخرة، وأولئك هم الذين قضى الله في حقهم بذلك إذ قال: ﴿خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الحج: ٢٢/١١].

هذا، ولعلك تلاحظ في هذا الذي بينته لك، ما يتضمن جواباً منطقياً مقنعاً لمن يظلون يعيدون ويكررون سؤالهم الناقد التالي دون ملل، ودون إصغاء منهم إلى الإجابة، إنه يتلخص فيما يلي:

في الناس غيرِ المؤمنين بالله من عكفوا في حياتهم على تحقيق خدمات إنسانية جليلة، ومارسوا في التعامل مع الآخرين أدق ما تدعو إليه موازين العدالة، وخرجوا من الدنيا وقد غرسوا في جنباتها من الأعمال الإنسانية الجليلة ما تتمتع بثمراته أجيال متواصلة دون انقطاع، فهل من الحق أن يُحرم هؤلاء الناس من المكافأة المناسبة على جهودهم وخدماتهم وعلى رعايتهم لموازين العدالة مع شعوبهم وأقوامهم، لمجرد أنهم غير مؤمنين بالله؟ وما المبرر في هذه الحالة

للقرار القرآني القائل في حقهم وحق أمثالهم: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٢٣]؟

والجواب المكرور المعروف عن هذا السؤال، هو أن الله يكرمهم بجزاء أعمالهم الإنسانية، ومعاملاتهم العادلة، دون طلب منهم ولا توقع. أليس هذا الأمن والرخاء والنعم الكثيرة التي لا تنقطع عنهم، جزاءً على أعمالهم ومعاملاتهم الإنسانية والعادلة التي تصفها؟ ألا ترى الغنى الذي يتمتعون به، والأمطار التي لا تكاد تجفّ مواسمها عنهم والزروع والثمار والخضرة التي لا ينقطع رفدها عنهم؟ هل كل ذلك إلا منحة من الله لهم جزاءً على ما تصف من أعمالهم الإنسانية، والعدل الذي يتراءى في علاقة ما بينهم؟

على أن شيئاً من هذه المِنَح لم تتنزل عليهم بعد طلب تقدموا به أو شرط اشترطوه على الله، وهل لهم من صدق الإيمان به ما يدعوهم إلى أن يسألوه فيستجيب لهم أو يدعوه فيعطيهم؟

إنها منح تفد إليهم من الله في دنياهم هذه، لأنه ألزم ذاته العلية أن يجزي العادلين في علاقاتهم، والإنسانيين في شؤونهم وأعمالهم، أجوراً وفيرة في الدنيا، سألوه أم لم يسألوه، عرفوه أم لم يعرفوه، لا لشيء إلّا لأنه ألزم ذاته بذلك إذ قال: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ١٨/ ٣٠]، وإذا قال: ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ [هود: ١١/ ١٥].

إذن فإن الله يجزي هؤلاء العاملين في الدنيا دون أن يسألوه، وقبل أن يعرفوه، بل إنه لا يقطع عنهم جزاءه هذا، حتى ولو سخروا من ذاته العلية أو ناصبوا دينه العداء. إذن فما الأجر الآخر الذي

ينقصهم، وما الظلم الذي حاق بهم، فيما يراه هؤلاء الناقدون الذين يلحفون في انتقاداتهم مع الزهد الشديد في معرفة الجواب الذي نلاحقهم به؟!..

إن الأجر الآخر الذي ينبغي أن ينالوه، فيما يجزم به هؤلاء الناقدون، هو دخول الجنة التي وعد الله عباده المؤمنين به المنقادين لأمره والعاملين لوجهه.

ولكن أفيؤمن هؤلاء الذين ينبغي أن ينالوا الجنة يوم القيامة، فيما يؤكده المدافعون عنهم والناقدون لسنة الله عز وجل، أفيؤمنون بوجودها، بل أفيؤمنون بيوم يعودون فيه إلى الحياة ويقفون فيه بين يدي الله للحساب والمجازاة؟

لو قلت لأحدهم أسأل الله لك الجنة أجراً على جهودك الإنسانية وعلى عدلك في التعامل مع الآخرين، لكان موقفه بين أن يثور على ما تعده به من الأوهام، وبين أن يسخر من حديثك عن الله ووعودك التي تبشره بها.

فأي قانون هذا الذي يأمرك أن تلاحقه بهذا الوعد، وأن تتحمل ثورته عليك أو سخريته منك، كي تلصق به أجراً لم يطلبه ولم يخطر منه على بال؟

والغريب أنك من هؤلاء الناس أمام موقفين متناقضين، عندما يتحدثون عن المجتمعات الغربية وأهلها.

فمرّة تسمع منهم الاحتجاج على الله عز وجل، لأنه يكرم تلك المجتمعات بالأمطار السخية والأرزاق الوفيرة والقوة والأمن، مع كفرهم وولوغهم في الفواحش والمحرمات، ومرة أخرى تسمع

احتجاجاً آخر منهم على الله سبحانه، إنه هذه المرة يتضمن الدفاع عن تلك المجتمعات لما قدّموه من الخدمات الإنسانية ولما أبدعوه من المخترعات التي جاءت استجابة لحاجات بل لضرورات لا مفرّ للناس منها في سائر القرون والأجيال.

الاحتجاج الأول يدعو إلى إنزال العقوبات فيهم لكفرهم ولما يمارسونه من الفسوق والعصيان، والاحتجاج الثاني يدعو إلى تكريم الله لهم وإلى أن يثيبهم بجنان الخلد، لما أنجزوه للإنسانية من خدمات.

والغريب أن أصحاب الاحتجاجين المتناقضين فريق واحد، تعرف أفراده بِشَارةِ الاستهانة بدين الله والتحرر من ضوابطه وأحكامه. مع التسلّي الدائم بالجدال في مبادئه وأحكامه، وإنهما لتسليتان دائمتان قلما تفترقان، إحداهما تتجلى في اللسان المتنطع بالجدال، والأخرى تتجلى في السبحة الثلاثينية التي تتفرقع حباتها بين الأصابع في انتظام.

والفراغ الأرعن يفعل بصاحبه هذا، بل أكثر.



لا يخلّد في النار إلا من بلغته الدعوة فاستكبر

نص على ذلك البيان الإلهي في أكثر من موضع.

من ذلك قول الله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٧/ ١٥].

ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾ [النساء: ٤/ ١٦٥].

ومن ذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾﴾ [طه: ٢٠/ ١٣٣-١٣٤].

ومن الأدلة على هذه السنة من حديث رسول الله ﷺ ما رواه الشيخان من حديث عبد الله بن مسعود، أنه صلى الله عليه وسلم قال: «لا أحد أغير من الله، من أجل ذلك حرّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحد أحب إليه المدح من الله عز وجل، من أجل ذلك مدح نفسه. ولا أحد أحب إليه العذر من الله، من أجل ذلك بعث النبيين مبشرين ومنذرين».

فدلَّ ذلك كله دلالة واضحة على أن الذي لم تبلغه الدعوة إلى

الإسلام معذور، وأن الذي يرفع العذر في حقه ومن ثم يحمّله المسؤولية، بعثةُ الرسل الذين توالوا مع الزمن. فمن لم تبلغه دعوة الرسل لسبب ما لا يعود إلى تقصير منه، معذور. والمعذور غير مكلف.

إلى ذلك ذهب جمهور العلماء، عملاً بما دلّت عليه الآيات المذكورة، وهي دلالة واضحة كما أسلفنا. وإنما خالف الجمهورَ في ذلك فريقان اثنان:

الفريق الأول المعتزلة، فقد ذهبوا إلى أن العقل يغني عن الرسل والأنبياء، وإنما ذكر الله الرسل في الآيات المذكورة، لينبهوا الناس على ضرورة إعمال عقولهم لمعرفة ما يترتب عليهم من حقوق العبودية والعبادة لله. فالعقل إذن هو مناط التكليف، وليست بعثة الرسل إلا لتنبيه الناس إلى ذلك(١)، وهو مذهب باطل ومحجوج بالأدلة العلمية التي أوردها علماء أهل السنة والجماعة، وليس هذا أوان الخوض في بيانها.

الفريق الثاني قلة من علماء أهل السنة والجماعة، تمسكوا بأحاديث لم تثبت صحتها تتضمن ما يدلّ على أن الله يمتحن يوم القيامة أصنافاً من الناس لم تبلغهم الدعوة في الدنيا، أو لم يكونوا أهلاً لها، منهم المولود، أي الذي مات وليداً، والمعتوه، ومن مات في الفترة، والشيخ الفاني الهرم، فيقول الله لهم: إني كنت أبعث إلى عبادي رسلاً من أنفسهم، وإني رسول نفسي إليكم، فيأمرهم

---

(١) انظر ما قاله الزمخشري في ذلك عند قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٧/ ١٥] في تفسيره (الكشاف).

بالدخول في النار، فيقول من كتب عليه الشقاء: يا رب أنى ندخلها ومنها كنا نفرُّ، أما من كتبت له السعادة فيمضي مقتحماً فيها، فيدخل الله الصنف الأول في النار، ويدخل الفريق الثاني في الجنة.

فقد وردت عدة أحاديث بهذا المعنى من طرق مختلفة، كلها يتضمن أن الله يمتحن أولئك الأصناف يوم القيامة بما قد ذكرت لك خلاصته. وقد ذكر الحافظ ابن عبد البر، بعد عرضه لهذه الأحاديث ما خلاصته: إن أحاديث هذا الباب ليست قوية، ولا تقوم بها حجة، وأهل العلم ينكرونها؛ لأن الآخرة دار جزاء، وليست بدار عمل ولا ابتلاء، فكيف يكلّفون بدخول النار، وليس ذلك في وسع المخلوقين، والله لا يكلف نفساً إلا وسعها[١].

قلت: والصحيح من هذه الأحاديث في إسناده، شاذّ في متنه. إذ هو يخالف مخالفة حادة الآيات القرآنية الصريحة في أن العقاب يوم القيامة، لا ينال إلّا من كانوا مكلفين في الدنيا، وقد أكدت تلك الآيات أن من لم تبلغه الدعوة، أو لم يتفهّمها لِعَتَهٍ أو جنون أو لصغر، غير مكلف، ومن ثم فهو لن يلاحَق بالعقاب يوم القيامة.

ثم إن الحكمة من هذه السنّة الإلهية، تعود إلى القاعدة الشرعية التي يعبر عنها قول الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢/٢٨٦] وبيان ذلك أن من يضع العناد والاستكبار حاجزاً بينه وبين الخطاب التكليفي الموجه من الله تعالى للإنسان، فمآله إلى إحدى حالتين لا انفكاك له عن واحدة منهما.

الحالة الأولى أن لا يتلقى خطاب التكليف هذا لسبب ما، أو أن

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير ٣/ ٣١، طبعة البابي الحلبي.

يتلقاه ولكنه لا يتمتع بالإدراك الذي يقدره على فهم ذلك الخطاب واستيعابه، فهذا ليس في وسعه النهوض بما يتضمنه الخطاب الإلهي من تكاليف، إذن فهو غير مكلف بموجب قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾.

الحالة الثانية أن يتلقى خطاب التكليف من الله مع توافر القدرة الفكرية لديه على فهم الخطاب والإيمان بالمخاطِب وهو الله عز وجل، فهذا أيضاً لا يملك أي قدرة على أن يمارس حريته في فهم خطاب الله أو عدم فهمه، إذ إن إدراك العقل للحقائق انفعال قسري، وليس فعلاً اختيارياً، والقاعدة تقتضي إذن أن لا يكلَّف المخاطَب بما لا قِبَل له بقبوله أو ردّه. وفي هذا إشكال مفاده أن الله قد خاطب عباده بما يتضمن التكليف بهذا الذي لا قبل لهم به، ألم يقل لهم: ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ [النساء: ٤/١٣٦]. ألم يقل آمراً: ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ﴾ [الشورى: ٤٢/١٥]؟!

والجواب أن الأمر بالإيمان في كتاب الله تعالى ليس منصرفاً إلى اليقين الذي يدخل في الذهن قسراً، وإنما هو منصرف إلى الأسباب التي يملك الإنسان اتخاذها في هذا الصدد والتي إن استعملها الإنسان أوصلته إلى الغاية التي هي الإيمان. فقول الله تعالى: آمنوا، معناه اتخذوا الأسباب التي بوسعكم أن تتخذوها، سبيلاً إلى الإيمان بالله تعالى والإيمان بكتبه ورسله واليوم الآخر.

والكافرون الذين توعدهم الله بالعقاب الخالد، هم الذين أتيحت لهم الأسباب التي توصلهم إلى الإيمان، وأتيح لهم استعمالها،

فأعرضوا عنها وآثروا البقاء في غبش الجهالة والكفر. ولن يكون هؤلاء إلا من فئة المعاندين والمستكبرين، إذ لن تجد ما يدعوهم إلى الإعراض عما طلب منهم الالتفات إليه والاستعانة به لمعرفة الحق والإيمان به، إلا الاستكبار والعناد.

* * *

بقي أن في الناس من دخلت الهداية الإيمانية قلوبهم عن طريق القيام بالتأمل والاستدلال، ثم إنهم فوجئوا بأفكار فلسفية جانحة هجمت على عقولهم، فزجت بهم في حال من الريب أو الكفر، والناس الذين تعرضوا لهذا الابتلاء كثيرون. فما حكم هذه الفئة، أهي داخلة فيمن حجبت عنهم الهداية قسراً بدون إرادة منهم فكانوا داخلين فيمن لم يتح لهم الإيمان بسبب أن الدعوة لم تبلغهم أو لأنهم لم يعقلوها لعَتَهٍ أو غباء أو صغر، أم إنها داخلة فيمن بلغتهم الدعوة وتمكنوا من فهمها ومن إعمال الوسائل والأسباب لغرس الإيمان في عقولهم بمضمونها.

والجواب أن ثمة فرقاً كبيراً بين من هجمت على فكره الفلسفات والأوهام الإلحادية، قبل أن يتلقى الدعوة وأن يعمل عقله في استعمال الدلائل وأسباب المعرفة، فاستحلت تلك الأوهام فراغه الفكري، وتحولت فيه إلى ما يشبه العقيدة الراسخة، وبين من تلقى الدعوة وتأمل في الدلائل والبينات الناطقة بصدق ما قد تضمنته الدعوة التي تلقاها، فأدرك الحقيقة على ضوئها، وترسخت العقيدة الإيمانية اعتماداً على تلك الدلائل في عقله، فإن الأوهام الفلسفية اللاحقة أياً كانت لا تقوى على امتلاخ اليقين العلمي السابق، بل إن من شأن إيمانه المدعوم بالدلائل العلمية المتنوعة، أن يطرد تلك

الأوهام، لا أن تتغلب الأوهام الوافدة على العقيدة الإيمانية المؤسسة على دلائل العلم.

إن من القواعد العلمية التي لا جدال فيها أن نظرية علمية ما لا يمكن أن تتغلب على قرار علمي ثابت بيقين، بل القرار العلمي هو الذي سيقضي على النظرية المخالفة ويمحقها. وهذا معنى قولهم إن التعارض الحقيقي لا يقوم بين يقين وظن، وإنما يقوم بين يقينين أو ظنين. ومآل التعارض الذي يبدو بين يقينين إلى أن يتجلى أنه تعارض وهمي لا حقيقي.

فإذا استقر الإيمان بالله وتوابعه يقيناً في العقل، مبنياً على الدلائل العلمية لا على التقليد، فلا يمكن للنظريات والفلسفات المخالفة أن تتغلب على اليقين وتزهقه. وقد عرفت القانون العلمي الناطق بذلك.

لعلك تقول: ولكنا نرى في الناس من يتحولون عن الإيمان بالله وتوابعه، إلى الإيمان بمذاهب وأديان أخرى، بل إنا نرى فيهم من يتحولون عن الإيمان بالله إلى الكفر به ورفع لواء الإلحاد.

والجواب أن هؤلاء الناس لا بد أن يكونوا أحد فريقين:

إما أنهم ممن لم تترسخ العقيدة الإيمانية في عقولهم، وإنما هو إيمان انتمائي مجرد، تابعوا في ذلك الآباء والأجداد، فهم في الظاهر مسلمون، ولكن عقولهم خالية عن الدلائل العلمية الناطقة بحقيقة الإيمان. فإذا صادف أن عكف أحدهم على دراسة المادية الجدلية مثلاً أو أي فلسفة إلحادية أخرى، وسيقت له أوهامها ونظرياتها بطريقة توحي بأنها حقائق علمية، فالشأن فيها عندما تصادف فكراً فارغاً خالياً من النقيض، أن تحتله وتستقر فيه،

وتبدد الإيمان التقليدي الذي ليس له داخل فكره من أساس ينهض عليه إلا حال المجتمع وواقع الآباء والأجداد، فينطبق عليه قول الشاعر:

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلباً خالياً فتمكنا

وإما أنهم ممن استقرت العقيدة الإيمانية بمضمونها العلمي يقيناً في عقولهم، ولكنهم واجهوا إغراءات تجاوبت معها رغائبهم المصلحية وشهواتهم، وكان الوصول إليها مشروطاً بالتنكر للمعتقد الذي استيقنوه وآمنوا به، فآثروا رغائب النفس على قناعة العقل وحقائق العلم، فتظاهروا بالريب بعد اليقين، بل بالكفر بعد الإيمان.

ومجتمعاتنا اليوم تفيض بهذا الفريق الثاني، لأنه يفيض بالغزو المادي ووسائل الإشباع النفسي، يحارَبُ من هناك سلطان العقل وحكمه، ولا سيما لدى المحرومين من حظوظهم النفسية والمادية، وهذا إيذان بإفلاس سلاح العلم والمنطق لدى محترفي الغزو الثقافي والفكري ضد هذه الأمة.

فمن أجل هذا يضاعف البيان الإلهي الوعيد للذين يكفرون بالله بعد إيمانهم به، ومردّه إلى هذا السبب الذي أذكره لك. انظر إلى قوله عز وجل:

﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ٨٦].

وتأمل في قوله بعد ذلك: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ٩٠].

* * *

لعلك تقول أخيراً: في الناس اليوم من بلغتهم الدعوة إلى الإسلام، بطريقة غامضة ومعلومات ضبابية غيرِ بينة، كالذين يبلغهم أن في الأديان التي يعتنقها الناس ديناً يسمى الإسلام، ثم لا تزيد معلوماتهم التي يتلقونها على ذلك، فهل يعد هؤلاء ممن بلغتهم الدعوة الإسلامية بالمصطلح الإسلامي المعمول به في كتب العقيدة، بحيث نقول إنه يجب عليهم أن يبحثوا ويتحروا لمعرفة الإسلام ومضمونه والتأمل في عقائده ودلائل صدقها؟

وفي الناس اليوم فئة أخرى، بلغتهم الدعوة الإسلامية، وعلموا أن لها مراجع تعرِّف بالإسلام وحقيقته، ولكنهم لا يتمكنون من التحرك والسعي إلى حيث توجد تلك المراجع، لأسباب خاصة بهم. ويوجد كثير من هؤلاء، في جهات متفرقة من أوربا وأمريكا، وفي إفريقيا وآسيا، فهل يعدّ هؤلاء معذورين في حكم الإسلام، ومن ثم فهم في حكم من لم تبلغهم الدعوة من أهل الفترة، أم إن الشرع يلاحقهم بضرورة العمل على فهم هذا الدين الذي بلغهم نبؤه؟..

وأقول في الجواب عن ذلك: إن هذه المسألة تدخل، حسب قناعتي، في المواقف الاجتهادية.

فبالنسبة إلى الفئة الأولى أرجح أن أفرادها لا يجدون لديهم، بناء على تلك المعلومات الضبابية، وازعاً يحملهم على ضرورة البحث عن شيء لا يعرفونه ولا يتصورون مدى احتياجهم أو عدم احتياجهم إلى معرفته والتعامل معه، ومن ثم فإن تكليفهم بالبحث والمراجعة، غير وارد بالنسبة إليهم.. من الذي يكلفهم؟ ومن أين بلغهم هذا التكليف؟ إذن فهم - والله أعلم - في حكم من لم تبلغهم الدعوة إلى الإسلام ولم يسمعوا بالإسلام.

وأما الفئة الثانية فالشبه القياسي فيها أجلى منه في الفئة الأولى. إن الذي سمع بالإسلام، وبلغه أن نبياً أرسل به وأكد أنه الدين الذي أرسل به سائر الرسل والأنبياء، ثم حبسه العذر، أياً كان، عن السعي إلى معرفته ومعرفة مضمونه والدلائل على صدقه، والوقوف على تعليماته العقيدية والسلوكية، معذور في جهله به، إذ ليس في وسعه أن يعلم شيئاً عنه، وقد علمت أن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها، فهو إذن في حكم أهل الفترة الذين لم يدركوا دعوة سيدنا عيسى عليه السلام ولم يدركوا دعوة خاتم الرسل محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

وحصيلة القول أن الكافرين الذين توعدهم الله بالخلود في العقاب الوبيل يوم القيامة، هم الذين قال عنهم: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ٢٧/ ١٤].

أما غير المستكبرين ممن لم يدخلوا الإسلام، فهم ممن لم يتح لهم أن يعرفوه وأن يتبينوا دلائل كونه حقاً آنياً من عند الله، وذلك لسبب من الأسباب التي ذكرتها لك الآن، فهم ناجون يوم القيامة، فيما نأمُل من رحمة الله وسعة فضله.



قراره القائل:
ولينصرنَّ الله من ينصره

والآيات التي تنص على هذا القرار الإلهي كثيرة، وكلها آت بعبارات ذات دلالات قاطعة.

فمنها قوله عز وجل: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٣٠/ ٤٧].

ومنها قوله تعالى: ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٤٧/ ٧].

ومنها قوله عز وجل: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٢٢/ ٤٠].

ومنها قوله سبحانه: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾ [إبراهيم: ١٤/ ١٣-١٤].

والمراد بالنصر هنا النصر بأوسع معانيه، فهو يشمل النصر على الأعداء الذين يريدون شراً بالمسلمين على اختلافهم، وهو يشمل النصر في المساعي المتجهة إلى تحقيق الوحدة والوئام، والمتجهة إلى الإبداع الحضاري، وتحقيق أسباب القوة والغنى، وبلوغ أوج المعارف والعلوم.

وبوسعك أن تلاحظ أن نصر الله لعباده بهذا المعنى الشامل رهن بإيمانهم الصادق به والتمسك بتعاليمه والالتزام بشرعه. إنك لتلاحظ أنه لم يلزم ذاته العلية بتحقيق النصر لهم، إلا بعد أن يلزموا أنفسهم بالانتصار لله عز وجل، حسب الصيغة القرآنية ذاتها. والمراد بانتصارهم لله أو نصرهم له صدق الالتزام بتعاليمه والتضحية بالنفس والمال في سبيل نشر دينه وإدخاله في قلوب الناس حباً له والتزاماً به. فهذا هو المراد بنصرهِمُ الله في قوله: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ﴾ [محمد: ٤٧/ ٧] وفي قوله: ﴿مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ [الحج: ٢٢/ ٤٠].

وإنك لتتأمل في تاريخ الإسلام منذ بعثة خاتم الرسل والأنبياء محمد عليه الصلاة والسلام إلى يومنا هذا، فتجد نفسك أمام مصداق هذه السنة الإلهية بوجهيها الطرد والعكس، فقد ظل النصر حليفاً للمسلمين ما ظل المسلمون ثابتين مستمرين على العهد، ينتصرون لدين الله بتمسكهم بتعاليمه وصدق الإيمان به، والدفاع عن دينه في وجه كل باغ عليه يسعى إلى النيل منه، بالنفس والمال وبكل ما هو عزيز على الإنسان.

نصرهم الله على أنفسهم فطووا أسباب الخلاف والصراع والحروب التي ظلت مستشرية فيما بينهم. وامتدت فيما بينهم وشيجة الألفة والحب والوحدة في مكان تلك الحروب والصراعات.

نصرهم الله على القوى الباغية المستشرية من حولهم والمجهزة بأعتى الأسلحة والعُدَد آنذاك، وسجلها التاريخ الغربي منذ ذلك الحين لغزاً يستعصي على التفسير، وظل في أذهان الغربيين اليوم لغزاً يستعصي على التفسير.

نصرهم في مجال العمران والصناعات والأنشطة الاقتصادية المختلفة: فقد أخذ المسلمون يشيدون الأبنية بالحجارة والجصّ، بعد أن كانت تقام بالقصب وخوص النخل واللبن، وراح المهندسون يخططون لإقامة المدن وتشييدها، والكوفة والبصرة أبرز مثالين لذلك، وكانت هندستهما بإشراف من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب.. نشطت الأعمال التجارية بين الصحابة بعد أن كانت وقفاً على الأنباط والأعاجم.. ظهرت فيما بينهم الصناعات المختلفة، وكانت عملاً مهجوراً من العرب من قبل.. تطورت صناعات الأطعمة والدقيق الحواري والخبز الرقاق وأنواع الحلوى، وكل ذلك كان مجهولاً عند العرب، وكانوا عالة في ذلك على الأعاجم من الفرس وغيرهم.

نصرهم الله في مجال العلوم والمعارف المختلفة التي انطلق الاهتمام بها من الاهتمام بعلوم الكتاب والسنة، ومن دعوة القرآن إلى العلم والتحلي به والاهتمام بكل أنواعه، فبرعوا في علوم الهندسة والفلك واتجهوا إلى معرفة الطب وأدوية الأعشاب، وترجموا الفلسفة اليونانية.

تم ذلك التوفيق كلُّه والنصر الإلهي خلال ربع قرن من الزمن، أي مدة الخلافة الراشدة تقريباً. وإن العاقل ليعجب عجباً لا ينتهي من أن تتحول حفنة من عرب الجزيرة من أقصى ما عرفت به من جهالة وأمية وصراع وبدائية في العيش وجهل في الصناعة، خلال ربع قرن من الزمن أو يزيد قليلاً، إلى أمة متماسكة غنية قوية ذات مخزون حضاري، ثم ما تلبث حضارتها أن تتغلب على سائر الحضارات الشامخة وتقضي عليها.

ولكن العجب يزول لدى من يوقن بأن القرآن كلام الله، ووعى قوله فيه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ [النور: ٢٤/٥٥]، ذلك هو الاستخلاف الذي وعدهم به في الأرض، وها هو ذا، قد آتاهم إياه.

فهذا هو جانب الطرد من هذه السُنَّة. ولقد ظل هذا الجانب سارياً، وظل نصر الله رفيقاً وفياً لهذه الأمة بأوسع معانيه، كما قلت، ما بقيت أجيالها وفية مع الله في الانتصار لدينه. على أن هذا الوفاء الذي اشترطه البيان الإلهي، لم يكن يعني في يوم ما العصمة من الذنوب والأخطاء، وإنما يعني الإخلاص في قصد التوجه إلى مرضاة الله، بصدق الإيمان به أولاً، وتحكيم شريعته ثانياً، والتوبة من الذنوب التي قد يتورط فيها العبد تجاه ربه ثالثاً.. وهكذا كانت هذه الأمة في الصدر الأول من تاريخها، وهكذا كان وفاء الله معها بالنصر، حتى سمي ذلك الصدر بقرونه المتعددة بالعصر الذهبي.

ثم جاء وجه العكس من هذه السنة الإلهية، وذلك عندما تغلب، شيئاً فشيئاً، سلطان الشهوات والأهواء، على فطرة الإيمان، وعلى ذكرى الالتزام بالعهد مع الله، عندئذ، بدأ عهد الله للأمة الإسلامية بالنصر يتقلص، فتركهم لعوامل التفرق والشقاق أولاً ولم يكن ما يسمى بعصر الدول الصغيرة المتتابعة إلا مظهراً لذلك، ولما استشرى سلطان الأهواء والمصالح الدنيوية المتصارعة، وراحت تبعث على التخبط والتقارع في السباق إلى تلك المصالح والأهواء، ازداد عهد الله لتلك الأمة تقلصاً، فأسلمهم لطغيان الحملات الصليبية ثانياً. والحديث الذي نحن بصدده في هذا

الكتاب، لا يسمح ببسط الكلام عن هذا التطور التراجعي الذي منيت به الأمة الإسلامية، حتى كان من جزاء ذلك أن حجب الله عنهم كثيراً من مظاهر نصره الذي كان قد وعدهم به، ولكن مصادر التاريخ تنطق بالتفاصيل الناطقة بهذه السنة الربانية طرداً وعكساً[١]. فلمن شاء أن يرجع فيها إلى التفاصيل.

ولما صحت هذه الأمة ثانية إلى العهد الذي كانت قد وقعته مع الله، إذ بايعته من جديد على التنفيذ ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، فجددت العهد، وتسامت على عوامل الفرقة واتباع الأهواء - والمصائبُ توقظُ من غفلةٍ وتجمعُ من شتاتٍ كما تعلم - وظهر فيها قائدان يعيدان إليها، بسيرتهما العطرة وأخلاقهما الإسلامية الصافية، ذكرى الخلافة الإسلامية الراشدة، أعاد الله إلى سنته هذه وجه الطرد فيها، فنصرهم إذ نصروه، وأيدهم بالتوفيق والظفر إذ أيدوه بصدق الإنابة والرجوع بسلوكهم إلى سنن الرشد، فطرد على أيديهم الصليبيين من حظيرة الإسلام، بإمرة قائدين، لو سلف الدهر بهما، لكانا اثنين في سلسلة الخلافة الراشدة، نور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي.

وازداد وجه الطرد في هذه السنة الإلهية التي نتحدث عنها، في الثلث الأول من عهد الخلافة العثمانية؛ فقد عاد فترسّخ الوجود الإسلامي على مستوى كل من ظاهرة الخلافة الجديدة، والسلوك الإسلامي السليم لأفراد الأمة، وعاد التأييد الإلهي يحقق لها كل

---

(١) من أصح وأفضل المراجع التاريخية لهذه الأمة، والتي تجسد مصداق هذه السنة لله في عباده، كتاب البداية والنهاية للحافظ ابن كثير.

معاني النصر؛ النصر على النفس، النصر على العدوان الخارجي، النصر في ميدان السبق الحضاري.. ولقد تبدى هذا التأييد الرباني في جولات بل فتوحات كثيرة، كانت قمتها فتح القسطنطينية، ذاك الفتح الذي كان على يد أمير أثنى عليه رسول الله قبل الناس كلهم، وبجهود جيش أثنى عليه رسول الله أيضاً قبل الناس كلهم، إذ قال: «لَتُفْتَحَنَّ القسطنطينية، فلنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش»[1].

ومن تابع مراحل السير إلى هذا الفتح، واطلع على حجم الوسائل المتاحة، والنتائج العظيمة الباهرة التي لم تكن في الحسبان، رأى بعين بصيرته قانون الله القائل: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٣٠/ ٤٧].

وحقاً، لو سلف الدهر بهذا الأمير، بل الفاتح الآخر، لكان أميراً آخر للمؤمنين في سلسلة الخلافة الراشدة، إنه كما تعلمون السلطان محمد الفاتح.

ثم ما الذي كان بعد ذلك؟

كان أن خلف من بعدهم خلْف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات كما قال الله تعالى.

عادت الانتصارات تبعث نشوة الكبرياء في النفوس، وتحجبها عن الإله الواحد الذي وفّق فنصر، وتوقظ فيها لواعج البحث عن شهواتها ومبتغياتها، وزادها هياجاً نحو تلك المبتغيات، ما رأته من

---

(١) رواه أحمد في مسنده والحاكم في مستدركه وسنده صحيح، من حديث بشر الغنوي.

الأبواب والسبل الكثيرة المفتحة إليها، فاستمرأ الجلّ، وليس الكل، التوجه بل التسابق إليها ثم العكوف عليها.

عاد عندئذ وجه العكس إلى هذه السنة الإلهية مرة أخرى؛ تركهم الله تعالى لما تفعله سباقاتهم المستشرية إلى المغانم والمصالح الآنية العاجلة، التي من شأنها أن تبعث فيهم عوامل الشقاق والبغضاء، فما هو إلا أن تهاوى حصن الخلافة الإسلامية الذي جمع الأمة الإسلامية ثلاثة عشر قرناً، وسار بها ما بين علوّ وهبوط وقوة وضعف، ثم إن الله تخلّى لهم عن ذلك الحصن لما تخلوا عن العهد الذي في أعناقهم، وتسربت إليهم عدوى إباحيات وفسوق الدول الغربية المجاورة.. فتناثرت الأمة الإسلامية عندئذ دويلات صغيرة تقودها العنصريات وتقوم ما بينها حواجز اللغات والقوميات والنزعات..

كان ذلك هو الحلم الذي تسعى إليه دول البغي التي كانت تنتظر ساعة الثأر، تثأر فيها من الإسلام.. وسرعان ما تحقق الحلم، وأقبلت دول البغي هذه تتقاسم الأمة الإسلامية بعد أن تحولت إلى دويلات، بل لقيمات.

كانت السنة الربانية، في تعاملها مع هذا الخَلْف الذي جاء على أعقاب ذلك السلف الصالح، تقول لهم: لقد كان أسلافكم يتسامون على زخرف الحضارات الجانحة المجاورة، ويتعاملون معها كمن يتعامل مع السِّقط من المتاع، فأخضعها الله لهم وجعلها بين أيديهم سقطاً من المتاع فعلاً، أما أنتم فقد أبيتم إلا أن تتصوروا أنفسكم لدى المقارنة مع زخرف تلك الحضارات، أنكم ذلك السقط من المتاع.. ولهذا انتابكم الشعور بالنقص وهيمنت عليكم مشاعر النسيان

للذات، وعشيت منكم الأبصار والبصائر بألق الفتنة الكاذبة، وهالتكم القوة الوهمية في ظل عكوفكم على ما لذّ وطاب من فنون الأهواء والموبقات التي اعتسفتها عليكم رياح تلك الحضارات.. فلما أصررتم إصراركم على أن تكونوا أنتم ذلك السقط من المتاع، كستكم سنة الله هذا الوصف ذاته. فكان ذلك في أنفسكم مبعث ذل وهوان، وكان ذلك في مرأى أعدائكم دافع تحكم برقابكم وهيمنة على أوطانكم وابتزاز لخيراتكم.

وها نحن نعيش إلى اليوم مرحلة هذا الوجه الثاني، وجه العكس من هذه السنة الإلهية، توازعتنا العنصريات والقوميات والأهواء، ثم نال منا الضعف وركبنا الهوان، فدفَعَنا ذلك إلى اللجوء لمن نراهم أولي القوة والنفوذ في ساحة هذه الحياة، فاستثمروا ذلك منا، وركبوا إلى فصلنا عن إسلامنا وقيمنا، وامتصاص حقوقنا، والهيمنة على أوطاننا، كل صعب وذلول.

وهكذا تحققت في تاريخ أمتنا هذه السنة الربانية ذات الوجهين: الطرد والعكس، تحقق وجه الطرد منها (أي الإيجاب) في حياة سلفنا الصالح، إذ وفوا بالعهد، وصدق فيهم الشرط الرباني القائل: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم: ١٤/١٤]، وتحقق وجه العكس منها (أي السلب) في حياة ذلك الخلْف الذي استمر إلى يومنا هذا، إذ حلّ الوفاء منا بعهود قوى الشر، بدلاً من الوفاء بعهد الله في أعناقنا، وحلّ الخوف من سطوتهم محل الخوف من بطش الله في قلوبنا.

هل بقي أي إشكال في طريق فهمنا لهذه السنّة الإلهية؟

بقي أن في الناس من قد يقول: ولكن الحروب التي خاض المسلمون غمارها في صدر الإسلام وفيما يسمى بالعصر الذهبي من تاريخ هذه الأمة، خلفت وراءهم كثيراً من القتلى الذين تنعتونهم بالشهداء، وكثيراً ما دارت رحى القتل عليهم أكثر مما دارت على أعدائهم، فأين ذلك من السنة التي يؤكدها القرآن في الآيات التي ذكرت؟..

والجواب أن النصر الذي وعد الله به عباده لا يعني تحقق الفتوحات على أيديهم بدون أي مغامرة، وقفزاً فوق واجب الجهاد وفوق احتمال القتل والاستشهاد، إذن لفُقِد عنصر الصبر في ممارسة العبودية لله، وهي تقوم على عنصري الصبر والشكر كما تعلم.

بل إن صبر المسلم على التضحية بروحه وبماله وبأمنه في سبيل الانتصار لدين الله جزء لا يتجزأ من معنى قول الله: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ﴾ [محمد: ٤٧/ ٧] وهو جزء لا يتجزأ من معنى قوله: ﴿مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ [الحج: ٢٢/ ٤٠] في آية ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ [الحج: ٢٢/ ٤٠].

وإنما يتمثل النصر الذي ألزم الله ذاته العلية به، في عاقبة الأمر، ولدى الجولة الأخيرة. وقد أجاب البيان الإلهي بتفصيل بيّن لا مزيد عليه عن هذا الاستشكال، تأمل في هذا الذي يقوله الله عز وجل:

﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١٣٩-١٤٢].

ولعل في الناس من يقول أيضاً: فإذا مُنِيَ المسلمون بالهزيمة لعدم وفائهم بالعهد الذي أخذه الله عليهم، فبأي موجب يكتب النصر لأعدائهم الذين تغلبوا عليهم؟

والجواب: أن الله قضى بحكمته أن تبقى الدنيا عامرة بأهلها، حتى يأتي ميقات الساعة التي تبدَّل فيها الأرض غير الأرض والسماوات، فإن كان المؤمنون بالله صادقين في الالتزام بالعهد سائرين على التعاليم التي عهد بها إليهم، جعل الله مقادة الدنيا بأيديهم، وإن ضيعوا العهد واستبدلوا بتعاليمه ما دعتهم إليه أهواؤهم، سلط الله عليهم أمثالهم، طبقاً لقانونه القائل: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ١٢٩].

فإن قلت: فهلّا أبعد الطرفين الظالِمَيْن - على حدّ تعبير القرآن - عن الإمساك بزمام إدارة الدنيا، فالجواب أن هذا يقتضي إنهاء مسيرة الحياة الدنيا، وتحويل عمرانها إلى خراب، من أجل عيون المسلمين الذين لم يعودوا أهلاً لأن يتبوؤوا مركز القيادة من الدنيا. وهذا يتنافى مع المنهاج الذي قضى الله به في قصة رحلة الحياة الدنيا.

ولتعلم أن تسليط الله أحد الظالمين على الآخر، لا يعدّ في قرار الله وحكمه نصراً للظالم المسَلَّط على الظالم الآخر، بل الظالم في هذه الحالة سوط الله في الأرض ينتقم به لمدة من الزمن ثم ينتقم منه، وقد علمت أن ارتفاع السوط إذ يهوي على ظهر شخص ما، لا يعدّ انتصاراً للسوط عليه، بل ربما كان السوط الذي يسخر للهُويّ على ظهره شراً منه. ألا ترى أن الله بعث على بني إسرائيل عندما بغوا بغيهم الأول، من هو شرّ منهم، وجعل منه أداةً لتأديبهم، وهو

بختنصر وجيشه، ثم إن الله بعث عليه من قوض ملكه وقطع شوكته، فذلك قوله عز وجل:

﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِي ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾﴾ [الإسراء: ١٧/ ٤-٥](١).

والفرق بين نصر الله عباده المؤمنين تحقيقاً لهذه السنة التي تتحدث عنها، وبين تسليطه البغاة بعضهم على بعض، أن الغلبة التي تكون للمؤمنين الأوفياء بعهد الله تعالى، تترسخ وتصبح مستمرة ما داموا مستقيمين أوفياء لعهد الله عز وجل، أما الغلبة التي تكون لظالم على آخر، فلا تدوم، بل سرعان ما تدور الدائرة على السوط المتغلب عندما ينتهي الدور الذي سخره الله له.

* * *

ثم اعلم أن النصر الذي يكرم الله به عباده الأوفياء بالعهد، الصابرين على التمسك بالحق، لا يتعارض مع أنواع من التأديب يواجههم الله بها، يغيبُ معها النصر غياباً جزئياً إلى حين، بسبب أخطاء تورط فيها المسلمون أو بعضهم على الرغم من صلاحهم واستقامتهم ووفائهم بعهد الله عز وجل. إن الهزة التي قد تنتابهم من جراء ذلك، وتُعقب قليلاً أو كثيراً من الضحايا، لا تعدّ شذوذاً عن هذه السنة، بل هي من أخصّ مقتضياتها.

---

(١) الراجح أن الذين سلطهم الله على بني إسرائيل آنذاك بختنصّر وجنوده، وقيل بل هو جالوت الذي قتله داود فيما بعد. انظر تفسير ابن كثير عند تفسيره لصدر سورة الإسراء.

لعل أبرز مثال لذلك ما أصاب المسلمين يوم أحد، عندما تورطت قلة من المسلمين فيهم، فوقعوا في مخالفة لأمر رسول الله ﷺ، فدارت دائرة الخسران والهزيمة عليهم، ثم ما هو إلا أن أعاد الله لهم النصر والتوفيق. لقد كان ذلك درساً من الله للمسلمين ولم يكن تخلياً منه عز وجل عن النصر الذي وعدهم به.

واقرأ في بيان ذلك خطاب الله الموجه لجماعة أحد، وهو يشرح لهم هذا الدرس بأبلغ عظة وأروع بيان، بدءاً من قول الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١٥٢ - ١٥٥].



صفحُه عن الذنوب التي لا هدر فيها لحقوق الناس

أما صفح الله عن الذنوب، فمصدره قول الله تعالى:

﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾

وأما استثناء الذنوب التي تنطوي على هدرٍ لحقوق العباد من هذه السنة الإلهية، فأساس ذلك الآيات الكثيرة التي تنهى عن ظلم العباد وتحذر من التورط فيه، سواء من ذلك الظلم المتمثل في أكل أموالهم أو الخوض في أعراضهم، أو اغتيابهم.

إن عبداً من الناس مهما امتد لسانه بقالة السوء في حق الله تعالى، فإن توبة صادقة يعود بها إلى الله، تكفر عنه ذنبه الكبير، ويغدو كمن لا ذنب له، ولكنه إن مدَّ لسانه بقالة السوء في عرض أخ له في الإنسانية، ليس له على ذلك بيّنة شرعية، لا بدّ أن يخضع لحدّ القذف، حتى وإن عفا عنه المقذوف لدى كثير من الاجتهادات الفقهية.

وإن عبداً من الناس مهما أوغل في شرب الخمور وتناول المخدرات والمسكرات، فإن ندامة صادقة تطوف بنفسه وتدفعه إلى الإنابة والتوبة إلى الله، تطهره من تلك الأوزار كلها، ولكنه إن توجه بفمه إلى أكل شيء من أموال الآخرين أياً كانوا، فإنه لا الندامة ولا التوبة تعيدانه إلى حظيرة القبول من الله، بل لا بدّ لقبول التوبة

من أن يعيد لصاحب الحق حقه أو مثله، أو أن يصفح عنه، ألم تقرأ قول الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾ [النساء: ٤/ ١٠].

ألم تقرأ قوله:

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾﴾ [المطففين: ٨٣/ ١-٦].

ألم تقرأ قوله:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾ [النور: ٢٤/ ١٩].

ومحل الشاهد في هذه الآيات التي يحذر الله فيها من ظلم الناس والاستهانة بحقوقهم، أنك لا تجد في الوعيد الذي تتضمنه، (وهو وعيد شديد ينذر بعذاب أليم كما رأيت) استثناء للتائبين، كما تجد عند الحديث عن الآثام التي فيها إهدار لحقوق الله من عبادات ونحوها.

هنالك يجعل البيان الإلهي كفارة الذنب التوبة، كقوله: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٧٠]، وهنا يعرض عن ذكر التوبة لينبهك إلى أن الذنوب التي فيها إساءة إلى حقوق الناس لا تمحوها التوبة، وإنما يمحوها إعادة الحق لصاحبه أو صفحه عمن استلبه منه أو أساء إليه.

ويعبر علماء الشريعة الإسلامية عن هذه السنة والقيد الاستثنائي الذي فيها بقولهم: حقوق الله مبنية على المسامحة وحقوق العباد مبنية على المشاحّة.

* * *

ونعود الآن إلى جذر هذه السنة، وهو أن الله من شأنه أن يغفر ذنوب المذنبين ما دام الحاملُ عليها تغلبَ النفس والهوى، لا الاستكبار على الله وشرعه.

وينبعث من هذا التقرير المعبر عن هذه السنة الاستشكال التالي: هل مغفرة الله للعصاة مطلقة، أي غير مقيدة بالتوبة من المعصية؟ فمهما عصى الإنسان المسلم ربه، بوسعه أن يوقن بأن الله سيغفر له؟ وقد علمنا أن المعاصي التي فيها إهدار لحقوق الناس ليست داخلة في عموم ما تشمله هذه السنة.

والجواب عن هذا الاستشكال مطوي فيما قاله الله لإبليس، وقد آلى على نفسه أن يزج الإنسان الذي كان سبب طرد الله له من رحمته وجنته، في الكفر والطغيان، قال له الله: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحجر: ١٥/ ٤١-٤٢].

فما معنى قوله عز وجل: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾؟

إن الناس كلهم عباد الله دون أي فرق بين المؤمن منهم والجاحد والفاسق، فهل معنى الآية أن الناس جميعاً ليس لك عليهم سلطان؟ من الواضح أن هذا المعنى العام ليس مراداً لكلمة عبادي في هذه الآية، لأن الجاحد بالله والموغل في المعاصي استكباراً على شرعه،

يمارس إبليس سلطانه الكبير عليه. فما المراد بكلمة ﴿عِبَادِى﴾ في هذه الآية إذن؟

المراد بها: الذين تحققوا بمعنى العبودية لله، أي وضعوا عبوديتهم لله موضع التنفيذ، من حياتهم كلها، وإنما يكون ذلك باعتراف الإنسان بهويته عبداً مملوكاً لله عز وجل، يعلم أنه مخلوق بيده خاضع لسلطانه، مردّه بعد الموت إليه، ومن ثم فهو يلزم نفسه بتنفيذ أوامره، والانتهاء عن نواهيه، جهد استطاعته.

فهذا هو المعنى المراد من كلمة ﴿عِبَادِى﴾ في الآية التي سبق ذكرها.

فكيف يكون حال الإنسان الذي وضع عبوديته لله من حياته موضع التنفيذ؟

إنه قد يتورط في ارتكاب المعاصي، متأثراً بالضعف الذي ابتلاه الله به، ومن ثم مستجيباً، أو متأثراً بإغواء الشيطان له، ولكنه ما إن ينتهي من ممارستها ويصحو من طائف الانجذاب إليها، والتلذذ بها، حتى تهتاج مشاعر عبوديته لله بين جوانحه، فتقرِّعه على ما تورط فيه وتذيقه كأس الندامة، فيقوده ذلك إلى التوبة إلى الله والإنابة إليه، وعندئذ يصفح الله عنه صفحه الجميل، ويصدق عليه قوله عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٣٥]، ويصدق عليه قوله: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٧٠].

وربما تأخر صحو العاصي مدة قد تقصر وقد تطول، فيرتكب ما شاء له هواه أن يرتكبه من الأوزار، للسبب الذي ذكرت من تغلب

نفسه وغرائزه ورعوناته عليه، ثم تهتاج به مشاعر عبوديته لله، وتثور بين جوانحه آلام الندامة والخجل أو الخوف من الله عز وجل، فيتوب إلى الله عن معاصيه كلها، بالجملة، كما يقولون. ولا ريب أن الله يغفر له ذنوبه كلها، ما دام أنه قد تاب عنها جميعاً.

وكثيراً ما يُطرح السؤال التالي: ولكن أرأيت إن عاد التائب فتورط في المعصية من جديد، تورط في المعصية التي تاب عنها، أو في معصية أخرى، أفتقبل توبته عنها ثانية؟

والجواب أن الأمر منوط بصدق التوبة التي لا بدّ أن تأتي بعد ندامة حقيقية وعزم على عدم الرجوع إلى العصيان. فإن كان الشأن كذلك، فإن الله يقبل التوبة مهما تكررت ويغفر المعصية مهما تكررت على أعقابها.

ألا ترى إلى قول الله عز وجل: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾﴾ [ق: ٥٠/ ٣١-٣٢]، فقد وعد بالجنة عباده (الأوابين)، والأواب مبالغة من آيب بمعنى راجع، ولا يكون الإنسان أواباً إلى التوبة، أي رجاعاً إليها، إلا إن كان كثير الشرود عن الطاعة إلى المعصية.

ولكن إن قصد العاصي من أول الأمر أن يكرر الولوغ في العصيان ما طاب له ذلك، مقرراً أن يمحو المعصية بالتوبة بعد الفراغ منها، ثم يعود إليها من جديد ثم يعود فيتوب منها، وهكذا، فلتعلم أن هذه الخُطة التي يعزم عليها صاحبها، تدخل في باب المكر إذ يمارسه بعضهم في حق الله، والله أجلّ من أن يمكر به، وهذا المكر لا يقلّ سوءاً عن الاستكبار على الله ومعاندته فيما شرع وقرر.

ولكن أرأيت إن استمرأ العاصي معاصيه وعكف عليها، وعاجله الموت قبل أن يتوب أو قبل أن يفكر في التوبة، أيكون مشمولاً بعموم هذه السنة الربانية التي نتحدث عنها؟

إن مردّ هذه الحالة إلى مشيئة الله عز وجل، فالعفو من الله عز وجل مأمول وممكن، ولكن لا سبيل إلى الجزم به والتألي على الله بذلك. ومستند ذلك قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤/١١٦] فأنت ترى أن الله فتح باب الأمل في مغفرة الذنوب التي تصدر من المسلمين، دون تقييد لذلك بالتوبة، ولكن البيان الإلهي قرر أن البتّ في ذلك عائد إلى مشيئة الله عز وجل.

وهذا ما اتفق عليه أهل السنة والجماعة، خلافاً للمعتزلة الذين شذوا فقال كثير منهم إن الله لا يغفر الكبائر من الذنوب إلا بالتوبة، وقال بعضهم إنه لا يغفر الذنوب أياً كانت إلا بالتوبة(١).

ولعل مما يشكل على هذه السنة قول الله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾ [النساء: ٤/ ٣١].

فلقد شرط البيان الإلهي لتكفير السيئات، وهي صغائر الذنوب، اجتناب الكبائر منها. ومعنى ذلك أن الكبائر إن لم تُجْتَنَب، لن يكفر الله السيئات التي ترتكب، وهذا يعني أن الله لن يكفّر عن مرتكبي السيئات كبائرهم من باب أولى. وهذا يتعارض في الظاهر

(١) راجع مذهب المعتزلة في هذا في كتاب (المذاهب التوحيدية) لمؤلف هذا الكتاب، ص ٨٣ فما بعد.

مع هذه السنة الإلهية التي دلّ عليها قول الله تعالى: ﴿۞ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر: ٣٩/ ٥٣].

والذي يزيل ما يُتوهَّم من الإشكال هذا الذي ينبغي أن نعلمه: أولاً: أن تكفير الله السيئات عن مرتكبيها لقاء اجتنابهم كبائر المحرمات، أمرٌ ألزم الله به ذاته في هذه الآية حتى بدون توبة من مرتكبيها، إذ لو اشترطت التوبة، لَقَبِلَ الله التوبة وغَفَر لذوي السيئات سيئاتهم، حتى ولو ارتكبوا الكبائر، لما قد علمت من أن الله قضى بقبول التوبة عن التائبين، وذلك في مثل قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ [الشورى: ٤٢/ ٢٥]، فلا يظهر عندئذ معنى لتقييد مغفرة السيئات باشتراط التوبة.

ثانياً: ما ينبغي أن تعلمه من أن الله جعل اجتناب الكبائر سبباً للعفو عن الصغائر كما هو ظاهر من نسق الآية. ولكن الآية ساكتة عن الحالة المخالفة، وهي حالة ارتكاب الكبائر، أجل، فالآية ساكتة عن مصير مرتكبي الكبائر، وقصارى ما في الأمر أن الله لم يلزم ذاته العلية في هذه الآية بأي قرار في حقهم بصدد ارتكابهم الكبائر ولا بصدد ارتكابهم السيئات (أي الصغائر). والمفهوم المخالف هنا هو عدم إلزام الله ذاته بالتكفير عن السيئات في هذه الحالة. أي فيمكن أن يعفو ويمكن أن لا يعفو، وليس مفهوم المخالف كما يتوهم البعض، أن الله يلزم ذاته العلية في هذه الحال بالمعاقبة على السيئات وأنه يتوعد بعدم تكفيرها.

فإذا كان الأمر في هذه الحالة مسكوتاً عنه، فإن السنة الربانية التي عبرت عنها الآية التي صدرنا بها هذا الفصل، جاءت تبييناً لما كان

مسكوتاً عنه، وهو أن الله يغفر الذنوب جميعاً، كبائرها وصغائرها، بالضوابط التي ذكرناها.

* * *

وربما أشكل على بعضهم في مجال فهم هذه السنة قول الله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾ [التوبة: ٩/١٠٦].

فظاهر هذه الآية ينافي الجزم بمغفرة الذنوب، وهو الذي دلت عليه هذه السنة الإلهية التي تضمنها قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٣٩/٥٣].

إن هذه الآية تدل بظاهرها على أن العصاة مرجؤون إلى حكم الله فيهم يوم القيامة، فقد يأخذهم بجريرة معاصيهم وقد يغفر لهم ويتوب عليهم.

والجواب أن هذه الآية نزلت، باتفاق المفسرين، في حق الثلاثة الذين تخلفوا عن رسول الله في غزوة تبوك، وهم كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع، تخلفوا عنه بدون عذر مقرّين بذلك، وكانت قد نزلت قبلها آيات في حق المنافقين الذين تخلفوا هم أيضاً، وراحوا يختلقون لذلك أمام رسول الله الأعذار الكاذبة، ثم نزلت بعدها آية في حق أبي لبابة وجماعة من أصحابه كانوا قد تخلفوا أيضاً لغير عذر، كسلاً وميلاً إلى الراحة، ثم ندموا وربطوا أنفسهم - فيما يروي ابن عباس - بسواري المسجد وأقسموا لا يحلّهم إلا رسول الله ﷺ. فنزل في حقهم قول الله عز وجل: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ

عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [التوبة: ٩/ ١٠٢] وعندئذ أطلقهم رسول الله وعفا عنهم.

فهذان فريقان: المنافقون وقد نزلت في حقهم أربع آيات بدءاً من قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ﴾ إلى قوله: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [التوبة: ٩/ ٩٣ - ٩٦].

وأبو لبابة وصحبه، وقد نزل فيهم قول الله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ﴾ الآية. وقد تبين أن الله غفر لهم، عندما عفا عنهم رسول الله ﷺ وأطلق سراحهم. فلا إشكال إذن فيها.

أما الثلاثة الآخرون: كعب بن مالك وصاحباه، الذين شملهم قول الله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾ [التوبة: ٩/ ١٠٦] فإن الإرجاء الذي في الآية ليس إلى يوم القيامة، إذن لورد الإشكال وظهر التعارض، ولكن الإرجاء الذي قضى به الله في حقهم إنما هو إلى ميقات قريب تعداده الأيام أو الشهور، والترديد الذي فيها بين المغفرة والتعذيب، إنما هو لحملهم على مزيد من الندامة، فهو نهج تربوي مجرد. والدليل على ذلك، ما نزل بعد ذلك في حقهم من توبة الله عليهم، مبدوءاً بقوله عز وجل: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾ إلى قوله: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [التوبة: ٩/ ١١٧ - ١١٨].

* * *

ثم اعلم أن هذه السنة بمعناها الإيجابي الذي شرحته لك، تتضمن سنة أخرى بمفهومها المخالف، وهي أن كل معصية تتضمن هدراً لحق من حقوق العباد، لا يغفرها الله إلا بعد استيفاء صاحب الحق حقه من الذي استلبه منه إن كان حقاً مادياً، أو بعد صفحه عنه إن كان معنوياً أو مادياً، وقد مرّ بيان ذلك في تضاعيف الكلام السابق.

ولكن أرأيت إن لم يتمكن المسيء أن يرفع إساءته عمن ظلمه، كأن حيل بينه وبين أن يراه لينصفه من نفسه، أو كان الحق مادياً ولم يتمكن من إعادته أو تعويضه، أو استسماحه، إلامَ يؤول حاله يوم القيامة؟

والجواب أن المأمول من رحمة الله ولطفه أن يلهم المظلوم يوم القيامة الصفح عمن كان قد ظلمه في الدنيا، ثم ندم ولم يتسنَّ له أن يعيد إليه حقه الذي استلبه منه، ولا أن يستسمحه، فقد ورد عن رسول الله ﷺ ما يدل على ذلك.

روى الحاكم في مستدركه وابن أبي الدنيا من حديث أنس قال: بينما رسول الله جالس إذ رأيناه يضحك، فقال عمر: ما يضحكك يا رسول الله بأبي أنت وأمي؟ قال: رجلان من أمتي جثيا بين يدي رب العزة، فقال أحدهما: يا رب خذ لي مظلمتي من أخي. فقال الله تعالى: أعط أخاك مظلمته، قال: يا رب لم يبق من حسناتي شيء، فقال الله تعالى للطالب: كيف تصنع ولم يبق من حسناته شيء؟ قال يا رب: يتحمل عني من أوزاري. قال - وفاضت عينا رسول الله بالبكاء -: إن ذلك ليوم عظيم يحتاج الناس إلى أن يُحمَل عنهم من أوزارهم. قال: فقال الله للطالب: ارفع رأسك فانظر في الجنان، فرفع رأسه ونظر فقال: يا رب لأي نبيّ هذا، أو لأي صدّيق أو لأيّ

شهيد هذا؟ قال: لمن يعطي الثمن. قال: يا رب ومن يملك ثمنه؟ قال: أنت تملكه، قال: وما هو؟ قال: عفوك عن أخيك. قال: يا رب قد عفوت عنه. قال الله تعالى: خذ بيد أخيك فأدخله الجنة. ثم قال رسول الله ﷺ: اتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم، فإن الله يصلح بين المؤمنين(١).

ومن المعلوم أن إخبار رسول الله ﷺ هذه الحادثة عن رجلين من أمته، لا يعني أن ذلك خاص بذينك الرجلين، لا يشركهما في ذلك أحد، وإنما الرجلان هنا نموذج لناس كثيرين لا يحصي عدّهم إلا الله تعالى، يعاملهم الله بهذه الطريقة ذاتها: يلهم المظلوم أن يصفح عن الظالم لقاء أجر بل مثوبة يكرمه الله بها.

غير أن هذا الذي أخبر عنه رسول الله ﷺ ليس قانوناً عاماً يسري في حق كل من ظلم أخاً له، ثم ندم ولم يستطع أن ينصفه من نفسه، بل الأمر في ذلك عائد إلى مشيئة الله وحكمه. وإنما القانون العام في ذلك هو ما عبر عنه الفقهاء بقولهم: حقوق الله مبنية على المسامحة وحقوق العباد مبنية على المشاحّة. وما أخبر عنه رسول الله استثناء من القاعدة.



---

(١) تلاحظ أن رسول الله ﷺ يخبر بصيغة الماضي: رجلان جثيا .. فقال أحدهما: ... إلخ مع أن الحادثة لم تقع بعد، إذ هي مما يحدث يوم القيامة، وإنما يصور رسول الله بذلك حوادث المستقبل يوم القيامة وكأنها واقعة اليوم.

إكرامه المصلحين في الدنيا ولو كانوا كافرين

ومصدر هذه السنة قول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [هود: ١١/١١٧].

ومعنى الآية: لا يتأتى أن يهلك الله قوماً أو أمة ظالماً لها، ما داموا مصلحين في علاقة ما بينهم. أي لن يهلكهم بسبب كفرهم ما داموا مصلحين.

يقول الزمخشري في كشّافه: «ومعناه أنه لا يهلك القرى بسبب شرك أهلها وهم مصلحون يتعاطون الحق فيما بينهم، ولا يضمون إلى شركهم فساداً آخر».

ومثل هذه الآية في الدلالة ذاتها قول الله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ [القصص: ٢٨/٥٩]، والظلم المراد هنا نقيض الصلاح والإصلاح. أي إن الله لا يهلك الكافرين والجاحدين في الدنيا بكفرهم، إن كانوا يتعهدون علاقات ما بينهم بالإصلاح والرعاية. وإنما يهلكهم في دار الدنيا بالطغيان إذ يستشري فيما بينهم، فذلك هو المراد هنا بالظلم الذي يهلكهم بسببه، أما عقاب الكفر والجحود فمدخر لهم إلى يوم القيامة.

ومثلها قوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة: ٩/١٢٠]، فمن كان منهم مؤمناً بالله عز وجل، أكرمه الله بأجرَيِ

الدنيا والآخرة، ومن كان كافراً بالله منهم جوزِي في الدنيا، وعوقب يوم القيامة على كفره.

إن ما تقرره هذه الآيات الثلاث، أن المحسن الذي لم يشوه إحسانه بظلم، أي بإساءةٍ إلى الآخرين، لا بدّ أن يلقى من الله جزاء إحسانه، فإن أراده جزاءً دنيوياً عاجلاً، بأن كان غير مؤمن بجزاء العقبى، آتاه الله أجر الدنيا، وإن أراده جزاء أخروياً مما أعده الله للمؤمنين الصالحين من عباده، أكرمه الله بكلٍّ من أجري الدنيا والآخرة.

وقد تجلّى هذا القرار في قول الله عز وجل: ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْآخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٤٥].

كما تجلّى في قوله: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ۝١٨﴾ [الإسراء: ١٧/ ١٨].

فهذا هو مضمون هذه السنة الربانية التي نتلوها قراراً في محكم تبيانه.

* * *

ثم إنك إن تأملت في هذا المضمون الذي أوجزته لك، وصلت منه إلى يقين بأن الكافرين لا يجوز أن يساقوا إلى الإسلام سوقاً، بحيث إن لم يستجيبوا وجب أن تدور عليهم دائرة القتل والإهلاك.

إن هذا التصور يتعارض معارضة حادة مع قول الله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ۝١١٧﴾ [هود: ١١/ ١١٧] وهي الآية الأولى في التعبير بجلاء عن هذه السنة الإلهية.

فأنت ترى أن الله عز وجل قد ألزم ذاته بأن لا يهلك الأمم أو الدول التي تنشر الإصلاح والقيم الإنسانية في علاقة ما بين أفرادها، بقطع النظر عن عقائدها الدينية، وقد لاحظت أن البيان الإلهي يعبّر عن هذا الإهلاك بالظلم، عد إلى المعنى الذي أوجزته لك، للآية، في صدر الحديث عن هذه السنة، تجد مصداق ما أقول.

فمن ذهب إلى أن الأمم التي لم تتمتع بنعمة الإيمان بالله والخضوع للإسلام يجب قتلها إن لم تستجب لإرغامها على الإسلام، فقد قرر صراحة نقيض قول الله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾. وقد علمت أن كلمة ﴿بِظُلْمٍ﴾ في محل الحال، أي ظالماً لها.

وقد أوضحت الحكم الشرعي في هذه المسألة، وفصلت القول فيه، في كتابي (الجهاد في الإسلام، كيف نفهمه وكيف نمارسه).

هذا، وإنما حاق الإهلاك بالأمم الغابرة التي يقصّ علينا القرآن كيف بادت بعد أن سادت، بإهلاك الله لها، بسبب الطغيان الذي استشرى فيها، والظلم الذي ركن إليه قادة تلك الأمم، يتبين لك هذا السبب جلياً في قول الله عز وجل: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت: ٢٩/ ٤٠] أي يظلم بعضهم بعضاً.

وإذا تتبعت أحوال الأمم التي يخبر الله عن إهلاكه لها بوسائل متنوعة، فيما قصه الله علينا من أنبائهم، علمت أن هلاكهم إنما كان

بسبب الطغيان الذي ركنوا إليه، ثم لم يتحولوا عنه، ذلك كان شأن عاد، وثمود، وقوم نوح وقوم لوط..

ولو ذهبت تقول: بل إن إهلاك الله لهم كان بسبب كفرهم فقط، إذن لتضمن كلامك هذا تكذيباً لقول الله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾ وحاشا أن يوصف كلام ربنا بذلك.

* * *

قد يطوف بذهن بعض الناس الإشكال القائل: فإذا كانت دولة أو أمة ما، لا تؤمن بالله عز وجل ولا باليوم الآخر، وكانت تلتزم فيما بينها بالقيم الإنسانية، وتمارس العدالة في صلة ما بين أفرادها، بعيدة عن الظلم والطغيان، فما وجه إكرام الله لها في دار الدنيا، وهي لا تؤمن به، ومن ثم فهي لا ترجو أن ينالها أي خير من مصدر لا تعلمه ولا تؤمن به؟!..

والجواب أن تمتيع الله عباده أياً كانوا بأسباب العيش وبالنعم الكثيرة المتنوعة، قرار، بل سنة ماضية في عباده جميعاً، منذ شاء أن يسكنهم فوق هذه الأرض، أياً كانت مذاهبهم أو مشاربهم. وهذا القرار الرباني منبثق من التكريم الذي أضفاه الله على الإنسان من حيث هو جنس أو نوع، قبل أن يحملهم أعباء التكاليف، ويبعث إليهم الرسل والأنبياء.

إذن فما تلقاه الأمم أو الدول الكافرة التي لم تنحرف في علاقات ما بينها إلى الظلم والطغيان، من مظاهر الإحسان والإكرام، ليس جزاء على أعمالهم الإنسانية التي يمارسونها،

بموجب عهد من الله لهم، ورغبة منهم بذلك.. وإنما هو مظهر للتكريم الذي قضى به في حقهم إذ قال: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ [الإسراء: ١٧/ ٧٠].

ولقد اتضح عموم هذا التكريم للناس كلهم على اختلاف مذاهبهم وأديانهم في قوله سبحانه: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾ [الإسراء: ١٧/ ٢٠].

ثم إن البيان الإلهي استثنى من عموم من ينالهم هذا التكريم، أولئك الذين يمارسون الظلم والطغيان في علاقة ما بينهم. وصدق الله القائل: ﴿وَلَا تَطْغَوْاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِيۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ﴾ [طه: ٢٠/ ٨١]، والقائل: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْاْ فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُواْ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾﴾ [الفجر: ٨٩/ ١٠-١٣]، والقائل: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾﴾ [الحاقة: ٦٩/ ٥] أي بسبب الطغيان.

فهؤلاء استثناهم البيان الإلهي من عموم من كرمهم الله وقضى أن يغدق عليهم من نعمه في الحياة الدنيا، بسبب ركونهم إلى العسف والطغيان والظلم.

على أننا سنجد أثناء شرحنا لسنة أخرى، من بعد، أن الله قضى في سابق علمه بحق الطغاة والظالمين أن يستدرجهم ويمدّ لهم سلسلة العطاءات والنعم إلى حين، ثم يأخذهم - كما قال - أخذ عزيز مقتدر، وسنفصل القول في ذلك، في حينه إن شاء الله.

أخيراً؛ إنك لتجد فيما أوضحته لك من حقيقة هذه السنة الإلهية

ودلائلها، الإجابة الكافية المقنعة عن السؤال المتكرر على ألسنة كثير من الجهال الذين يمعنون في الوقوف عند الإشكالات التي تفرزها جهالاتهم، ولا يلتفتون التفاتة واحدة إلى استحصال المعرفة التي تبصّرهم بالجواب عنها. وهو ما يقوله أحدهم: ها هي ذي المجتمعات الأوربية يمعن أهلها في أنواع الكفر والجحود، ويتمرغون في أوحال من المحرمات، وهم على الرغم من ذلك يتلقون مظاهر الإكرام وأنواع النعم دونما وقوف عند حد!..

والجواب هو ما قد عرفته الآن، من أن الله لا يهلك الأمم بسبب كفرها وعدم إيمانها، وإنما يهلكها بسبب عكوفها على الظلم والطغيان، والإعراض عن تحكيم ميزان العدالة.. والمجتمعات الأوربية التي يضرب هذا المستشكل المثل بها، ترعى فيما بينها القيم الإنسانية، وتتجنب منزلقات الظلم وتضييع الحقوق، وقد سبق أن ذكرت لك في مناسبة مرت مدى انضباط تلك المجتمعات برعاية الحقوق، والالتزام بكل ما يمليه عليهم الضمان الاجتماعي الذي يُنظر إليه على أنه شرعة مقدسة.

وهذا الجواب، هو ذاته الذي يكشف لك السبب في الهلاك الذي حاق بدول أو مجتمعات مسلمة، ولكنها تجاهلت الانضباط بميزان العدالة، وأوغلت في الظلم والطغيان فحاق بها التفكك ثم الذل، فالدمار، دون أن ينفعها الإسلام الذي تنتمي إليه، أو أن يحول بينها وبين سنة الله في عباده.

لقد قلت لك من قبل، وها أنا ذا أعود فأقول: إن الله يكره الظلم ويعاقب عليه ولو كان الظالم مسلماً، وإن الله يحب العدل ويثيب

عليه حتى ولو كان العادل كافراً، يثيبه عليه في الدنيا، ولكن ليس له في الآخرة من نصيب.



السكوت على المنكرات نذير فساد

الآيات التي تحذّر من السكوت على المنكر وعن الأمر بالمعروف كثيرة، ولعل أشدها قول الله عز وجل: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٧٩﴾ [المائدة: ٥/ ٧٨-٧٩].

ومن الآيات التي تحكي سنة من سنن الله في عباده، ماضية في الأمم السابقة، قوله عز وجل: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذۡنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ١٦٥﴾ [الأعراف: ٧/ ١٦٥].

على أن أكثر الآيات التي تتحدث عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، في القرآن، مصوغة بطريقة الأمر، أو بطريقة الثناء على القائمين بهذه الوظيفة، فلا يستبين معنى السنة أي القانون فيها، ما عدا هاتين الآيتين اللتين افتتحنا بهما الحديث عن هذه السنة.

ولكن معنى السنة الإلهية يستبين واضحاً في كثير من الأحاديث النبوية الواردة في هذا الموضوع.

من ذلك الحديثُ الذي رواه البزار والطبراني في الأوسط، من حديث عمر بن الخطاب، والترمذي من حديث حذيفة أن

رسول الله ﷺ قال: «لتأمرُنّ بالمعروف ولتنهَوُنّ عن المنكر، أو ليسلطن الله عليكم شراركم، ثم يدعو خياركم فلا يستجاب لهم».

ومن ذلك ما رواه أحمد من حديث عدي بن عميرة، والطبراني من حديث أخيه العرس بن عميرة أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله لا يعذب الخاصة بذنوب العامة حتى يُرى المنكرُ بين أظهرهم، وهم قادرون على أن ينكروه فلا ينكرونه»(١).

فأنت ترى أن النبي ﷺ جعل من العاقبة الخطيرة التي تُبتلى بها الأمة في أعقاب السكوت على المنكر، قانوناً مستمراً أي سنة إلهية نافذة دائماً.

ولقد أشار البيان الإلهي إلى هذه السنة في قول الله عز وجل: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ﴾ [الأنفال: ٨/ ٢٥]، وإنما سبب تلك الفتنة السكوت على المنكر، كما ذكر جمهور المفسرين.

إذن فنحن من هذه الآيات وهذين الحديثين، أمام سنة ربانية ماضية في عباده، وهي أن أي مجتمع يشيع فيه المنكر، مع السكوت عليه، يصبح عرضة للفتن وأنواع البلاء والمصائب، تصيب ذلك المجتمع كله. أما المقيمون على المنكر فيه، فلارتكابهم المنكر وعدم إقلاعهم عنه. وأما البقية ممن لم يشتركوا معهم في ارتكابه، فلسكوتهم على المنكر الذي يرونه أو يعلمونه.

---

(١) أورد ابن كثير هذا الحديث في تفسيره وضعفه، وأقول: الأحاديث الواردة بهذا المعنى كثيرة، وكثير منها صحيح وحسن، فصحة هذه الأحاديث تجبر ضعفه.

غير أن هذه السنة خاصةٌ بالمجتمعات المسلمة، إذ إن غير المسلمين لا يُطالَبون في الدنيا بالأحكام السلوكية ولا بالابتعاد عن المحرمات، وإنما الذي يخاطَبون به في الدنيا والآخرة معاً، الدخولُ في الإيمان والعملُ على غرس العقائد الإيمانية في العقل عن طريق الالتفات إلى الأدلة والآيات الربانية في الكون.

إذن، فلا يقولن قائل: ها هي ذي المجتمعات الغربية تشيع فيها المنكرات على اختلافها، وليس فيها من ينكر أو يحذر، فما للفتن والمصائب لا تنتابها؟

* * *

ثم إن لإنكار المنكر سبلاً شتى، ومن المهم أن نعلم أن الناس كلهم ليسوا ملزمين، بصدد ما ينبغي أن يقوموا به، باستعمال هذه السبل كلها.

فأما عامة الناس ممن لا يدخلون في طائفة أولي الأمر، فإن السبيل الذي يكلَّفون باستعماله، إنما هو التذكرة باللسان، وبالحكمة والموعظة الحسنة. فلا يجوز لهم أن يتجاوزوا ذلك إلى أي أسلوب من أساليب القمع. إلا الأب، ومن يقوم مقامه من الأصول بالنسبة لأولاده وأحفاده، فله أن يستعمل من أساليب القمع عند الضرورة القدر الذي تقتضيه المصلحة، ذلك لأن الآباء ومن ينوب عنهم من الأصول يُعدُّون من أولي الأمر داخل أُسَرهم وبيوتهم.

وأما أولياء الأمر في الأمة أو داخل المجتمع، فيملكون السبل المتنوعة للقضاء على المنكر، بدءاً من النصيحة الكلامية إلى ما هو فوقها، فما فوقها، فما فوقها من أساليب التأديب والتقريع، على أن

لا يتجاوز أحدهم الأخف إلى ما فوقه إلا عندما تدعو الحاجة والحكمة إلى ذلك، ولوليّ الأمر، إن اقتضت الحاجة، أن يبلغ في وسائل قمع المنكر إلى درجة التعازير المشروعة في باب العقوبات.

إذن فلا يجوز لأفراد الناس، ومنهم العلماء، والمفتون، أن يتجاوزوا حدود التذكرة الكلامية، مهما كانت خطورة المنكر المراد إنكاره، ومهما رأوا أن أولياء الأمر متساهلون أو معرضون عن واجبهم في ذلك. ومردّ ذلك إلى ما تحذّر منه الشريعة الإسلامية من التعرض لأسباب الفتنة والوقيعة بين الناس، إن لأولياء الأمر من السطوة والهيبة ما يدرأ الفتنة عن الأمة، عندما يقومون بواجب النهي عن المنكر، إن هم استعملوا الحكمة، ولكن ذلك لا يتأتى لأفراد الناس وعامتهم، مهما اختلفت مراتبهم وتنوعت وظائفهم.

هذا بالنسبة إلى تنوع الفئات بصدد ما يترتب عليهم من النهي عن المنكر.

أما بالنسبة إلى تنوع المنكر ذاته وتفاوت درجاته فيجب ملاحظة ما يلي، وأخذه بعين التطبيق والاعتبار:

من المعلوم أن المنكرات متفاوتة الأثر في المجتمع، وفي تسببها لنشر الفساد فيه.. فمن المنكرات ما يتسبب عنه زوالُ ضروريٍّ من ضروريات المقاصد الخمسة التي تدور عليها أحكام الشريعة الإسلامية، ومنها ما يتسبب عنه زوال مقصد حاجيّ من المقاصد الخمسة، ومنها ما يترتب عليه زوال مقصد تحسيني منها[١].

---

(١) مقاصد الشريعة الإسلامية خمسة بإجماع علماء المسلمين لا مزيد عليها، هي الدين أولاً، والحياة ثانياً، والعقل ثالثاً، والنسب أو الأسرة رابعاً، =

فإذا تبين ذلك فإن على من يتوجه إلى منع المنكر والقضاء عليه، أن يعلم أو يغلب على ظنه أن إزالته لذلك المنكر لا يتسبب عنها حلول منكر آخر محله، أسوأ من المنكر الأول في أثره على مقاصد الشريعة الإسلامية. فإن غلب على ظنه خلاف ذلك وجب السكوت عندئذ عن المنكر الموجود، درءاً للمنكر الأسوأ والأخطر في قائمة المقاصد والمصالح ذات الدرجات المتفاوتة.

فإن غلب على الظن مثلاً أن إنكار شرب الخمرة والمنع منه في مكان ما، سيتسبب عنه إزهاق نفس بغير حق، وجب السكوت عن المنكر القائم درءاً للمنكر الأشد.

وإن غلب على الظن أن منع زيد من الناس من الاقتراض بالربا، سيدفعه إلى السرقة أو الاغتصاب، وجب السكوت عن منكر الربا درءاً للمنكر الأشد وهو سرقة مال الغير أو الغصب منه.

ولعل من الخير أن ترجع إلى ما كتبه حجة الإسلام الإمام الغزالي في باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، من الجزء الثاني من كتابه إحياء علوم الدين؛ ففيه تفصيل وافٍ بهذا الموضوع وإحاطة به من سائر جهاته.

* * *

وبعد، فإن معظم مجتمعاتنا وبلادنا الإسلامية، يعاني من منكرات متنوعة شتى، تشيع في أرجائها. ولعل ذلك هو سبب تزايد الفتن والمحن والابتلاءات فيها.

= والمال خامساً. أي بهذا الترتيب. ووسائل تحقيق كل منها يتدرج في الضروريات منها أولاً، وفي الحاجيات ثانياً، وفي التحسينيات ثالثاً.

والحقيقة أن السبب لا يكمن في وجود المنكرات في المجتمع، فإن مردّ ذلك إلى ما هو معروف من ضعف الإنسان وتعرضه، من جراء ذلك، لارتكاب المعاصي على اختلافها، وقد علمت أن العصمة من الذنوب إنما هي للأنبياء والرسل وحدهم.

ولكن سبب تعرض هذه المجتمعات للمصائب والمحن، سكوت أهلها عن ملاحقة المنكرات، بالإنكار، فلا الناس العامة (والعلماء منهم) يستعملون ألسنتهم في إنكارها والتحذير منها بالحكمة واللطف، ولا القادة فيهم يستعملون سطوتهم وإمكاناتهم التي لا تتاح لغيرهم، في العمل على إزالة المنكرات، وتنظيف المجتمع جهد الاستطاعة منها.

ويجب أن لا يغيب عن البال، أن سكوت القادة عن منع المنكرات، منكر بحدّ ذاته، بل هو من أخطر المنكرات التي يتفرع عن وجودها وجود سائر المنكرات التي تشيع في المجتمع.

وإنما السبيل إلى القضاء على هذا المنكر الأمّ لسائر المنكرات الأخرى، توجُّهُ عامة الناس، وفي مقدّمتهم العلماء القائمون بمهامّ الدعوة الإسلامية، إلى أولياء الأمور، يذكرونهم بضرورة العمل على تطهير المجتمع من المنكرات الظاهرة التي تشيع علناً في أرجائه. فهذا من أهم المنكرات التي يجب على سائر المسلمين التعاون في السعي إلى إنكارها، على أن لا يخرج ذلك عن حدود الكلام والحوار وتذكير الحاكم بواجب حماية المجتمع من تسرب الفتن والمحن إليه، من جراء شيوع المنكرات فيه.

ولعلك تسأل: فهب أن الناس كلهم قاموا بواجبهم في تذكير

أولياء الأمور بما هم مكلفون به من تطهير مجتمعاتهم من المنكرات التي يُستعلن بها، فلم تُجْد تذكرتهم شيئاً، وبقيت المنكرات على حالها، بل ربما أخذت تزداد وتتفاقم، ما الذي يجب فعله عندئذ؟

والجواب: أن الإنكار اللساني من الناس يجب أن يستمر، وفي ذلك ما يرفع اللائمة عنهم أمام الله عز وجل. ولكن أفيحقّ لهم في مجال الحوار أن يطالبوا الحاكم بالتنحي عن الحكم عندئذ، دون أن يتجاوزوا في ذلك حدود الحوار والكلام، والإعلان عن الرغبة التي في نفوسهم؟

الذي أعلمه أن هذا لا يعدّ بحدّ ذاته خروجاً على الحاكم (وقد علمت أن الخروج عليه غير جائز فيما اتفق عليه جمهور المسلمين، ما دام لم يتورط في كفر صريح بواح) إذ الخروج الذي حذر منه علماء الشريعة الإسلامية، هو العمل على خلعه بالقوة، أي بقوة السلاح. والاحتجاجات اللسانية، بوسائلها السلمية المعروفة اليوم، لا تدخل في المعنى الذي حدده العلماء لكلمة (الخروج على الحاكم)[1].

فإن قلت: أفرأيت إن كان المنكر الذي يقع في المجتمع تلبساً

---

(١) من المفارقات التي لم أتبين لها أي وجه، دفاع بعض أهل العلم عن القذافي حاكم ليبيا، واعتبارهم له مسلماً لا يجوز الخروج عليه. وقد علم كل من رآه أو سمعه أو سمع عنه أنه أعلن ضرورة حذف كلمة (قل) التي صُدِّرَت بها آياتٌ في القرآن، من مثل قول الله: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ وقوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ وقوله: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾ ولا نعلم أنه رجع عن ذلك، ألا يكفي هذا كفراً صريحاً بواحاً؟!

بالكفر الذي كثيراً ما يكون ردّةً عن الإسلام، أيظلّ هذا التفصيل في الفرق بين وظيفة أولي الأمر وعامة الناس وارداً هنا أيضاً؟

والجواب أن هذا الفرق يظل هو المحكّم بالنسبة لسائر المنكرات، بما فيها ما يتسبب عنه الخروج عن الإسلام، لا يملك الناس، وفي مقدمتهم علماء الدين ورجال الدعوة إلى الإسلام، إلا النصيحة والتحذير، ودعوة المرتدّ إلى الاستغفار وعودة النطق بشهادة الإسلام. ذلك هو واجبهم لا يجوز لهم السكوت عنه كما لا يجوز تجاوز الإنكار اللساني إلى ما وراء ذلك. ولا يرد هنا ما قلناه من أن الواجب هو السكوت عن المنكر، إن غلب على الظن نشوء منكر أشدّ منه إن أزيل المنكر الأول؛ لأنه لا يوجد منكر أخطر وأشدّ من الردّة والكفر، حتى يُبرَّر السكوت عنه تفادياً للمنكر الأخطر.

أما واجب وليّ الأمر عند ظهور من يستعلن بالكفر والردة عن الإسلام، فإن عليه أولاً أن يعلم أن الاستعلان بالردة في المجتمع المسلم من شخص واحد أو جماعة، هو في الحقيقة إعلان باتخاذ موقف الحرابة من ذلك المجتمع المسلم. إذ لو كانت المسألة داخلة في مساحة ما يسمى بحرية المعتقد والرأي، لوسع المعلِنَ عن ردّته بين المسلمين، أن يستخفي بها وأن يمارس معتقده الجديد مع خاصته وضمن بيته وأسرته. وليس على وليّ الأمر في هذه الحالة أن يقتحم عليه دائرة حياته الخاصة ويقوم بدور المفتش والمراقب.. ثم على ولي الأمر بعد ذلك - إن ذهبنا إلى أن تصرف الحاكم مع من يأبى إلا أن يعلن ردّته، داخل في أحكام الإمامة لا التبليغ[1] - أن

---

(١) يرى جمهور الفقهاء أن المستعلن بردته داخل المجتمع المسلم، محارب =

يمارس الحكمة في حماية المجتمع من الانزلاق إلى هاوية الكفر والعقائد الباطلة التي يسعى إلى ترويجها بيننا محترفو الغزو الفكري ضد الإسلام، وأن ينفذ ما يراه الأضمن لتحقيق هذا الهدف، ولا ريب أن في مقدمة ما تقتضيه الحكمة استقدام المرتدّ وجمعه بثلة من العلماء الثقات المخلصين الحكماء، ليصغوا إلى الشبهات التي زلزلت عقيدته الإيمانية ودعته إلى الخروج من دينه، ثم ليناقشوه فيها مناقشة علمية هادئة بحيث تعيده إلى معتقده الإيماني.. فإن هم حاوروه وتبين أن العامل الكامن وراء كفره وردته لا يتمثل في شبهة سرت إلى عقله، وإنما هي استجابة منه لخُطة ترمي إلى غزو الأمة الإسلامية في معتقداتها، وإلى تقويض ما ينسجه الإسلام من الثوب الحضاري الذي تغلَّبَ ولا يزال على الألق الكاذب للحضارات الأخرى، فإن على الدولة الإسلامية، أو قل: إن على وليّ أمر المسلمين أن يعلم أنه أمام أخطر حرب غير معلنة ترمي إلى القضاء على الوجود الإسلامي ممثلاً في عقائده وأخلاقياته وحضارته. والمحارَبُ يجب أن يدافع عن وجوده، ووجود من هو أمين على وجودهم، مكلَّف من قبلهم برعايتهم وحراسة عقائدهم ومصالحهم وقيمهم. ولا يصغينّ إلى من قد يتهمونه في ذلك بما يسمونه الإرهاب، فقد علم عقلاء الدنيا جميعاً أن هذه الكلمة التي ينعتوننا بها ويخيفوننا منها، إنما هي طبول حرب تقرع بين يدي سعيهم إلى

= أعلن حرابته للمجتمع الذي هو فيه، عن طريق (شفرة) الردّة. وعلى ولي الأمر أن يتخذ الحكمة التي يراها في المعالجة، فإن رأى أن الأمر لا بدّ أن ينتهي به إلى قتله، فعل. انظر كتابي (الجهاد كيف نفهمه وكيف نمارسه) باب الردة والتفصيل الذي ذكر فيه.

تمزيق ما بقي من وحدتنا وتضامننا ثم القضاء علينا، ولست أدري كيف تُنعتُ مقاومة الفريسة بالإرهاب، كي تُنعتَ مخالب السبع الضاري إذ تنشب في جنباتها بالإنسانية بل الملائكية الحنونة!!..

* * *

وبعد، فقد غدت المنكرات المتنوعة التي يُستعلن بها في مجتمعاتنا، لا سيما في مواسم الخير، وعند مقتضيات التقرب إلى الله، عن طريق وسائل الإعلام المختلفة وغيرها، نوافذ شرٍّ تتجمع منه عوامل فتنة ومصائب لا يعلم مدى خطورتها إلا الله.

والنذير الأكبر لا يكمن في هذه النوافذ المفتحة، ولكنه يكمن في السكوت على ما تأتي به من شرّ والإعراض عنه، وفسح المجال أمامه تكريماً له وإعجاباً به وركوناً إليه.

أمَّا أن يوجد المنكر في المجتمع فذلك من مقتضيات عدم العصمة، وذلك ما شاء الله.

وأما أن يُستعلن بها مع التبرير لها والتباهي بها، فذلك نذير بركان يوشك أن يتفجر بوابلٍ من المصائب والفتن.

وقى الله أمتنا شرّ البراكين الخفية، وشرّ الخطط الكائدة المعلنة.. إنه سميع مجيب.



قراره القائل:
سنستدرجهم من حيث لا يعلمون

معنى هذه السنة أن الله لا يقطع رفده ونعمه عن الطغاة والظالمين، بل ربما يزيدهم من ذلك إلى أجل.. ولله في ذلك أكثر من حكمة.

لعلّ أهمّها أنهم - وقد أبطرتهم النعمة - ينبغي أن يحجَبوا من رحمة الله ولطفه ومن ثم فقد قضى الله قضاءه المبرم بإقصائهم من آمال التوبة والإنابة إليه، وذلك بابتلائهم بالمزيد من أسباب قسوة القلب، والمزيد من عوامل السكر ونشوة الاستكبار، وإنما تتمثل عوامل ذلك، بالنسبة إليهم، بأن يمدّهم الله بألوان الرغائب والنعم واللذائذ والمشتهيات، فمن أجل ذلك يفتح عليهم - كما قال عز وجل - أبواب كل شيء، حتى إذا ازدادوا فرحاً بما أوتوا، وركنوا إلى مزيد من العُتوّ والطغيان، أخذهم الله بعذاب وبيل من حيث لا يتوقعون، وعلى حين غرة.

ثم إن الآيات التي تتحدث عن هذه السنة الإلهية، وقرار الله بشأنها، تنقسم، لدى التأمل فيها، إلى قسمين:

القسم الأول منها، يتضمن بيانَ ما يدلّ على أن الإمهال الذي قضى به الله في حق من انقطعت آمال الرحمة الإلهية عنهم، إمهال مستمر

يصاحبهم إلى الموت، ويغلب أن يكون هذا في حق من استمرؤوا الكفر والجحود بالله، عناداً واستجابة لأهوائهم ورعوناتهم، دون أن يتلبسوا مع ذلك بظلم وطغيان على عباد الله الآمنين البرآء. ومن الآيات التي يتحدث البيان الإلهي فيها عن هذا القسم من الإمهال، قول الله تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١٩٦-١٩٧]، ومنها قول الله تعالى: ﴿فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾ [القلم: ٦٨/ ٤٤-٤٥].

وأما **القسم الثاني** منها، فيتضمن ما يدل على أنه إمهال موقوت إلى حين، وأن عقاباً وبيلاً سيواجههم في دنياهم التي ينعمون فيها، وإنما ميقاته غيب مطوي في تلافيف علم الله. ويغلب أن يكون هذا النوع الثاني من الإمهال، في حق الطغاة الظالمين الذين أضافوا إلى كفرانهم وجحودهم بالله، إمعانهم في الأرض فساداً بالظلم الذي استمرؤوه، وبتسلقهم إلى سدّة الطغيان على الآخرين من عباد الله عز وجل.

والآيات التي يتحدث البيان الإلهي فيها عن هؤلاء الطغاة، وعن الإمهال الموقوت الذي قضاه بحقهم كثيرة، منها قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾﴾ [الرعد: ١٣/ ٣٢]، وقوله عز وجل: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾ [الحج: ٢٢/ ٤٨]، ومنها قول الله تعالى عن فرعون وقومه: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ١٣٥-١٣٦]. ومنها قول الله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ

قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام: ٦/٤٣-٤٤]. ومنها الآيات التي أخبرنا الله فيها عن قارون والكنوز التي متعه بها والترف الذي أضفاه متباهياً به على نفسه، والبغي الذي مارسه على قومه، وكيف أملى له الله وأرخى بين يديه زمام فجوره وظلمه، حتى ظن المفتونون بزخارف الدنيا أنها نعمة دائمة أورثه الله إياها، وقال قائلهم: ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [القصص: ٢٨/٧٩]، ثم إن الله أهلكه وقضى على ملكه وأبّهته كلها، فجأة وفي الميقات الغيبي المحدد.

ولعل من المهم أن تعلم الحكمة من الفرق بين الاستدراج المستمر إلى يوم القيامة، بالنسبة للفئة الأولى، والاستدراج الموقوت الذي ينتهي بالانتقام وسوء المآل في الدنيا.

إن الفرق هو أن العقاب الذي تستحقه الفئة الأولى إنما هو على الكفران والجحود وعدم الانقياد لسلطان الله وأمره، وهي جريمة في حق الله دون عباده، فاقتضت الحكمة أن يؤخر الله عقابهم إلى يوم القيامة. أما العقاب الذي استحقته الفئة الثانية فإنما هو على الظلم والبغي والطغيان على عباد الله، بالإضافة إلى جريمة الكفر والجحود في حق الله، فاقتضت العدالة الإلهية أن يثلج الله صدور عباده المظلومين الذين حاق بهم بغي أولئك البغاة بما يريهم من العقاب الذي ينزله بأولئك العتاة الظالمين، بعد الاستدراج الذي يأخذهم به، طال أو قصر أمده، هذا بالإضافة إلى عقاب الكفر المدَّخر لهم إلى يوم القيامة.

ثم إن النعم التي تتوالى على الكافرين والجاحدين بدون حساب، مصدرها الاستدراج يقيناً، وإنما أقول «بدون حساب» احترازاً عن نعم تكون ثمرة لجهود فكرية أو جسمية بذلها الكافر، فإنها لا تأتي إليه استدراجاً، وإنما هي حق متعه الله به لقاء جهده الذي بذل، وقد علمت مما ذكرته لك في حكمة سابقة أن من سنن الله في عباده أنه لا يضيع أجر العاملين أياً كانوا؛ مؤمنين أو كافرين. فأما المؤمنون فيجزيهم على جهودهم الدنيوية في الدنيا، ويجزيهم على جهودهم الأخروية في الدنيا والآخرة، وأما الكافرون فيثيبهم عليها في الدنيا فقط، أساس ذلك قول الله عز وجل: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾﴾ [هود: ١١/ ١٥]. فإن رأيته، أي الكافر، يتمتع بفيض كبير من الآلاء والنعم، أكثر مما يناسب قيمة جهده وعمله، فاعلم أن تلك الزيادة استدراج من الله له. ينطبق هذا على الفرد الواحد وعلى حال المجتمعات الكافرة.

ولكن هل يمكن أن تكون النعم التي يتمتع بها المسلم الصادق في إسلامه ثمرة استدراج هي الأخرى؟

والجواب أن هذا ممكن، ولكن متى تكون فضلاً من الله وإكراماً، ومتى تكون نقمة واستدراجاً؟ أجاب النبي ﷺ عن ذلك عندما قال: «إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا ما يحب، وهو مقيم على معاصيه فإنما ذلك منه استدراج»[١].

وإن بوسع أحدنا أن يعود إلى نفسه وأن يراقب حاله، ليعلم مصدر

---

(١) رواه أحمد والطبراني والبيهقي في شعب الإيمان، من حديث عقبة بن عامر.

النعم التي يتلقاها من الله عز وجل، أهو تفضل وإكرام، أم نقمة واستدراج.

ولعلك لن تجد مؤمناً علم حقوق الله تعالى عليه، وأدرك الضعف الذي ابتلاه الله به، يجرؤ أن يقرر جازماً، بأن كل ما يتلقاه من الله تعالى من النعم ورغد العيش وأسباب الرفاهية، عنوان محبة وإكرام من الله تعالى، وليس شيء منه جاء استدراجاً ومقدمة لفتنة.

بل إن شأن المؤمن أنه كلما ازداد معرفة بالله وقرباً منه وتعظيماً له، ازداد اطلاعاً على مدى تقصيره في جنب الله، وازداد حياءً منه لما يشعر به من عدم وفائه بشيء من حقه. فأنّى ومتى يتاح له أن يعلم بأنه قد أنجز كامل حقوق الله عليه، ومن ثم فإن كل ما يتلقاه من النعم الوافدة من عنده، إنما هو وفاء لقرباته وطاعاته؟!..

لو كان في الناس من يدرك هذا الشأو ويملك هذا اليقين، لكان أوّلهم عمر بن الخطاب ﷺ. وهو الذي بكى لما سيقت إليه غنائم القادسية، خوفاً من أن يكون ذلك التوفيق الذي أتى بتلك الغنائم استدراجاً من الله له، بكى قائلاً: اللهم إنك تعلم أن محمداً ﷺ كان خيراً مني، ولم تعطه كل هذا، وإنك تعلم أن أمير المؤمنين أبا بكر كان خيراً مني فلم تعطه هذا، فأعوذ بك اللهم أن تجعله فتنة لي في ديني.

وإني لأقول: إن مما يميز الإكرام عن الاستدراج، حالَ العبد الذي يتلقى من ربه المنن والنعم. فإن تلقاها مع الشكر يتوجه به إلى ربه، مستمراً عليه، فذلك دليل على أنها تفد إليه رسائلَ حبٍّ وإكرام، وإن تلقاها مشغولاً بها عن المنعم محجوباً بها عن ذكر مولاه المتفضل

بها عليه، منصرفاً بها إلى الوجوه والسبل التي لا ترضي الله عز وجل، فذلك دليل على أن الله يرسلها إليه لتستدرجه إلى مزيد من الغفلات وإلى الانغماس في مزيد من الملهيات والمنسيات. وإنها لعقوبة عاجلة يبتلي الله بها من سخط عليه لإمعانه في الإعراض عن كل ما يذكّره بالله ويدعوه إلى حمده وشكره، رغم كثرة المنبهات والمحذّرات التي لا تنقطع عنه. وصدق الله القائل: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: ٢٠/ ١٢٤]، والقائل: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ١٨/ ٢٨].

* * *

يتبين لك مما ذكرته هنا، ومما كنت قد حدثتك به من قبل، أنك قد تجد تداخلاً بين سنتين، بل ثلاث سنن ربما، في حياة المجتمعات الغربية اليوم.

إن الله يحقق ثمرات جهودهم في الدنيا ولا يضيّعها لهم، وإنه يحب منهم العدل في التعامل السّاري ما بينهم ويكرمهم على ذلك، وإنه يُمدّهم بمزيد من النعم ورفاهية العيش، استدراجاً لهم، واستحضاراً للمزيد من أسباب العقاب الذي ينتظرهم على كفرهم والإعراض عن نداء الله لهم.

فهذه ثلاث سنن ذكرتها لك، تقرؤها واضحة صريحة في بيان الله عز وجل، كلّها يلتقي على تمتيع أهل تلك المجتمعات بالنعم المتنوعة وأسباب الأمن ورغد العيش.

فجهودهم المبذولة لرغباتهم المعيشية، والعدالة التي ينهجون إليها في معاملاتهم بعضهم مع بعض، وقرار الله القاضي بإمدادهم بمزيد

من المشتهيات الملهيات والمنسيات استدراجاً لهم، كل ذلك يقتضي أن يتمتعوا بمزيد من مظاهر الأمن والرخاء، لأسباب مختلفة اجتمعت على نتيجة واحدة.

فإذا قلت لك إن تلك المجتمعات يصدق عليها قرار الله القائل: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [القلم: ٦٨/ ٤٤] فلا يوهمنك ذلك أنه يتعارض مع ما قلته لك من قبلُ من أن عدالة الله مع عباده اقتضت أن يكرمهم بثمرات جهودهم التي بذلوها، وإن كانوا كفرة مارقين، أو يتعارض مع الثواب الدنيوي الذي يعجله لهم لقاء العدالة، بل اللطف الذي يتعاملون على أساسه فيما بينهم، وإن كانوا كفرة جاحدين، فلكل من هذه السنن الربانية التي يعامل الله بها عباده، دوره وسببه، أي إن الأرباح التي يجنونها ثمرة لجهودهم العلمية والصناعية والإبداعية، مختلفة عن المكرمات التي تفد إليهم جزاء على الرعاية والألطافِ الإنسانية التي يشيعونها قوانينَ ساريةً فيما بينهم، وكلاهما مختلف عن المزيد من المشتهيات والأعطيات ومظاهر الترف، التي يدع الله أبوابها مفتّحة أمامهم، استدراجاً لهم إلى مزيد من العتوّ بها والسكرِ بملذّاتها، عقاباً عاجلاً على إعراضهم عن بيان الله الذي يلاحقهم بالتعريف .. والتحذير..

ولعل جمهرة الناس، غير أصحاب الرعونات والعصبيات، يدركون دواعي ومبررات السنَّتين: الأولى والثانية، ويقتنعون بما يدل على واقعها ووجودها الحقيقي.. ولكن كثيراً منهم لا يريدون أن يدركوا معنى الاستدراج في مظاهر النعم التي يمدّ الله بها المارقين والطغاة من عباده.

إن أحدهم لينظر بعين الاغتباط والإعجاب إلى ما يتقلب فيه

أولئك الناس من المبهجات والملهيات ومن مستحدثات السبل إلى أفانين النعيم وبسطة العيش، وإنه ليصوغ من هذا الذي يراه أحلاماً يحتضنها ويمنّي نفسه بيوم الوصول إليها، فكيف يهضم فكرُه الحديثَ القائل: بل إن كل ذلك ليس إلا نُذُراً بين يدي سخط الله وعقابه؟!.. وكم رأيت فيهم من يقول: فليصبْنا شيء من عدوى هذه النُّذُر التي تمتعنا بقدرٍ من هذه الطيبات!..

والحق الذي أراه أن هذا الألق الخادع الذي يتراءى في حال الأمم أو الجماعات التي يستدرجها الله ويملي لها بين يدي الهلاك المُشقي الذي يكمن أمامها، لا ينكشف عن الهول المخيف الذي يكمن وراءه، إلّا لمن تتبع عواقب أمثال هذه المجتمعات الغربية اليوم ممن قصّ البيان الإلهي علينا أنباءهم وأرانا نتائج لهوهم وتقلباتهم في أمتع ألوان المشتهيات. على أن يستيقن أنه الخطاب الرباني الصادق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وقد حدثنا البيان الإلهي عن طائفة ممن خُدعوا فعلاً بمظهر الاستدراج، أُخِذُوا بشكله المبهر المغري، ولم يتنبهوا إلى دخائله وذيوله المشقية المرعبة. حتى إذا جاء ميقات الوقوع في الكمين، بعد ذهول عنه بسكر الأهواء والمشتهيات، انحسرت عن المخدوعين عوامل الانبهار والانخداع، واغتبطوا بالصحو الذي أعقب ذهولهم وأيقظ عقولهم.. وذلك في حديثه عن قارون والناس الذين خدعوا بالنعيم الذي استجرّه إلى عاقبته المرعبة التي فاجأه الله بها. تأمل في هذا الذي يقوله الله عز وجل:

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ

وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [القصص: ٢٨/ ٧٩-٨٣].

ولعل الذي يحجب كثيراً من الناس اليوم عن معنى الاستدراج إذ يأخذ الله به كثيراً من الأفراد والجماعات، طول المدّة التي يُستدرجون فيها، فيما يبدو لهم.

سمعوا حديث القرآن عن قوم نوح وكيف أهلكهم الطوفان.. وسمعوا حديثه عن عاد أولاد إرَمَ أولئك الذين بعثرتهم هلكى في الفضاء ريح صرصر عاتية!.. وسمعوا حديثه عن ثمود واستكبارهم وكيف هلكوا بصيحة واحدة أحالتهم إلى ما يشبه أصناماً جاثمة.. وسمعوا حديثه عن قوم لوط أولئك الذين مزجوا استكبارهم العاتي بأقذار الفواحش المهينة، وكيف أهلكهم الله بالأرض التي أطاحت بهم إذ جعل سافلها التي من تحتهم عاليها التي أطبقت عليهم.. وسمعوا حديثه عن فرعون الذي تألّه على قومه فاستخفهم فأطاعوه، وكيف أهلكهم الله باليم الذي كان يبَساً، ثم عاد أمواجاً أحاطت بهم فأغرقتهم.

سمعوا عن تلك الأمم، ووقفوا منها أمام مرحلتي العطاء والاستدراج، ثم الأخذ والإهلاك.. من خلال الصور القرآنية التي رأوها، بل من خلال أنباء التاريخ وسجلاته وآثاره.

أما أشباههم من الأمم والجماعات التي تعثو اليوم فساداً في الأرض، فإنهم لا يبصرون فيها إلا مرحلة العطاء والإمهال والتمتيع بكل ما لذّ وطاب. قد يدركون من واقعهم الممتدّ هذا معنى كل من السنّة الأولى والثانية، ولكنهم ينتظرون دون أن يجدوا فيهم مصداق السّنة الثالثة التي نتحدث الآن عنها، وهي سنة الاستدراج التي لا بدّ أن تنتهي بشرِّ أنواع الهلاك.

إن وجه المفارقة بين حديث القرآن والتاريخ عن الأمم البائدة، وما نراه من واقع الدول والجماعات الطاغية اليوم، وهمي لا حقيقة له. فالفجوة الزمنية في حياة الأمم والجماعات السابقة، بين سنوات لهوها ومرحها، وبين ساعة أو ساعات هلاكها، كانت هي الأخرى طويلة ممتدة، ولكن بيان القرآن والتاريخ طوى الحديث عن آمادها وسنوات اللهو والمرح والفساد فيها، وركز على العواقب التي هي وحدها محل العبرة والدرس.

وإذا حان ميقات انتهاء حضارة الطغيان واندثارها اليوم، فإن التاريخ لن يصور للأمم الآتية آمادها وقرونها المتطاولة التي عاشتها، وإنما يصور العاقبة، ويمعن في بيان مظاهر الهلاك الذي حاق بها. ولسوف يرى المتأملون، أن سلسلة الأحداث متآلفة، وأن سنن الله في عباده جارية في نسق واحد دائم دون أي مفارقة ولا خلل.

ثم إني أذكرك بما هو معلوم من أن تاريخ الدول والأمم لا يقاس بما يقاس به عمر الإنسان الفرد من وحدة الساعة واليوم والشهر والسنة، وإنما يقاس بالقرون وأجزائها وأضعافها.

إنك إذ تقول عن دولة أو أمة ما، إنها بادت بعد أن سادت، تعلم

أن الزمن الذي تنطوي عليه كلمة (بعد) تترجمه ربما القرون، فإذا قلت إن فلاناً من السلاطين أو المفكرين أو العلماء عُمِّرَ طويلاً قبل أن يموت، فإنما تعني بالعمر الطويل عشرات السنين لا أكثر. ذلك لأن أعمار الأمم والدول تختلف عن أعمار الأشخاص من الناس.



ما يتلقاه الإنسان من بشارة أو نذير عند الموت

وهذه سنة أخرى من سنن الله الجارية في عباده.

نقرؤها واضحة جلية في أكثر من آية في كتابه. من ذلك قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾﴾ [فصلت: ٤١/ ٣٠-٣١].

أي تتنزل عليهم الملائكة مبشرين عند حلول الأجل ساعة النزع، قائلين لهم: لا تخافوا مما أنتم مقدمون عليه من أحداث يوم القيامة، ولا تحزنوا على ما تخلفونه وراءكم من ولد وأهل ومال أو دَيْن، فإنا نخلفكم فيما تركتموه ونبشركم برحمة الله وغفرانه فيما أنتم صائرون إليه. هذا ما ذهب إليه جمهور المفسرين، منهم مجاهد والسُّدّي وزيد بن أسلم. وفي الحديث الذي يرويه البراء رضي الله عنه أن الملائكة تقول لروح المؤمن: اخرجي أيتها الروح الطيبة في الجسد الطيب، اخرجي إلى رَوْح وريحان وربّ غير غضبان[١].

---

(١) انظر ما ذكره ابن كثير في تفسير هذه الآية ٤/ ٩٩.

ومن ذلك قول الله عز وجل: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [يونس: ١٠/ ٦٢-٦٤].

المراد بالبشرى التي في الحياة الدنيا بشرى الملائكة للمؤمن عند احتضاره، بمغفرة الله وعفوه، بذلك قال كثير من المفسرين، ويشهد له حديث رسول الله ﷺ الذي رواه الشيخان عن عبادة بن الصامت عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن المؤمن إذا حضره الموت بُشر برضوان الله وكرامته، وإن الكافر إذا حضره الموت بشر بعذاب الله وعقوبته».

ولا تنافيه الأحاديث الكثيرة التي تدل على أن المراد بالبشرى في الآية الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو تُرى له، بل إن المتعين هو الذهاب إلى أن الرؤيا الصالحة واحدة من المبشرات التي يتلقاها المؤمن، وليست البشرى الوحيدة المقصودة في الآية، ذلك لأن الآية تجزم بتلقي المؤمن ذي التقوى البشارة بالفوز في الحياة الدنيا، في حين أن في المؤمنين من يعيشون العمر كله دون أن يرى أحدهم في المنام ما يبشره، ودون أن يرى له ذلك غيرُه. فإن ذهبت تفسر البشرى التي في الآية بالرؤيا الصالحة فقط، كان الواقع إذن مخالفاً لما تنطق به الآية من تلقي المؤمنين المتقين كلِّهم البشارة بالفوز في الحياة الدنيا، والقرآن أسمى وأجلّ من أن يقع فيه خلف.

فدلّت الآيتان إذن على أن من سنن الله في عباده أنه يرسل البشارة بالمغفرة والعفو لكل مؤمن عاش حياته متّقياً الله عز وجل، وإنما يكون ذلك عند الموت.

قد تقول: ولكن الآية أثبتت هذه البشارة لأولياء الله خاصة، فهي لا تشمل الذين لم تتحقق لهم مرتبة الولاية في الدنيا.

والجواب أن البيان الإلهي أوضح المراد بمن سماهم الله أولياءه، فقال عز وجل عنهم: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۝٦٣﴾ [يونس: ١٠/٦٣] إذن فالولي ليس أكثر من إنسان آمن بالله بصدق، ثم وضع إيمانه به موضع التنفيذ من حياته، فدفعته مخافة الله وتعظيمه وحبه إلى الانضباط بأوامره والانتهاء عن نواهيه جهد الاستطاعة.

إذن فالولي ليس ذاك الذي يتصوره كثير من الناس، شخصاً بالغاً الذروة في الورع والتقوى بحيث تتحقق على يديه الخوارق، وتتراءى في حياته الكرامات، ولا تزلّ به القدم إلى معصية. إن الوليّ في المصطلح القرآني، ليس مستثنى من عموم من قال عنهم رسول الله ﷺ: «كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون»[١]، بل هو واحد منهم.

إذن فقد قضت سنة الله في عباده أن يتلقّى الصالحون منهم بشارة المغفرة والصفح، عند الموت، أي قبيل الانتقال من الدنيا إلى الحياة البرزخية.

أما الفاسقون الذين ختمت حياتهم بخاتمة السوء، فقد قضت سنة الله عز وجل أن يتلقى كل منهم نذير العقاب المدَّخر له يوم القيامة، قبيل الموت أيضاً.

تأمل في هذا الذي يقوله الله تعالى عمن يسميهم (الظالمين):

---

(١) رواه أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم من حديث أنس.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٦/ ٩٣].

إذن فإذا وقع (الظالمون) في سياق الموت، وهم كل من ختمت حياتهم بخاتمة السوء، بشرتهم ملائكة العذاب بسخط الله، وما ينتظرهم من عقابه.

ومثل هذه الآية في الدلالة ذاتها قول الله عز وجل: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾﴾ [الأنفال: ٨/ ٥٠] أي قائلين لهم: ذوقوا عما قريب عذاب الحريق.

وفي الحديث الذي رواه الشيخان من حديث عائشة بيان وتأكيد لما يتلقاها كل من عباد الله الصالحين وغيرهم عند الوقوع في سياق الموت من بشارة الصفح والمغفرة أو نذير السخط والعقاب.. يقول المصطفى ﷺ: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه» قالت له عائشة: يا رسول الله: أهو الموت، فكلنا يكره الموت، قال: «ليس بذاك، ولكن المؤمن إذا دنا موته وبشر برحمة الله ورضوانه وجنته، أحب لقاء الله، فأحب الله لقاءه، وإن الكافر إذا دنا موته وبشر بعذاب الله وسخطه، كره لقاء الله، فكره الله لقاءه»[(١)].

وفي توزيع النبأ الذي يتم تلقّيه عند الموت بين المؤمن والكافر، كما ترى في الحديث، دلالة على أنه لا واسطة بينهما، أي بين نبأ

(١) الحديث متفق عليه بألفاظ متقاربة.

البشارة ونبأ الإنذار، فهو، أي الراحل من الدنيا، إما مؤمن أو كافر. أما المؤمن فيتلقى البشارة، وأما الكافر فيتلقى الإنذار، وفي هذا من اللطف الرباني بالمؤمنين ما لا يخفى. إن هذا يعني أن كل من رحل إلى الله من هذه الدنيا مؤمناً، فهو مبشر بمغفرة الله وعفوه.

قد تقول: فأين هو مكان المؤمنين العصاة من هذا المصير؟

والجواب أن المؤمن الصادق في إيمانه، مهما عصى الله أيام إقباله على الدنيا، لا بدّ أن تدعوه مشاعر عبوديته لله، ولو بعد حين، إلى التوبة والإنابة إلى الله، فيرحل عن الدنيا مطهراً من رجس معاصيه، ومن ثم يتلقى البشارة بالمغفرة عند سياق الموت. أما المؤمن الذي لا سلطان للإيمان بالله على قلبه، ولا متَّسَع في قلبه لشيء من محبة الله أو الخوف منه، فالشأن فيه أن يركن إلى المعاصي على اختلافها وتفاوتها، ولن يزيده العصيان إلّا بعداً عن الله وإعراضاً عنه، وركوناً إلى مشتهياته وأهوائه، فإذا فاجأه الموت ووقع في سياقه، فإن مشاعره تتوجه كلها بالأسى إلى رغائبه ومبتغياته الدنيوية التي سيفارقها بعد أن كان منصرفاً إليها مهتماً بها، وعندئذ يرحل عن الدنيا غافلاً عن الله متلهفاً على دنياه، ولا بدّ أن يتبدد إيمانه بالله في ضرام آلامه من وقع الموت وأسفه من مفارقة أهوائه، فيتلقى عندئذ النذير بالعقاب الذي ينتظره.

وهكذا فإن من يسمى في الظاهر مؤمناً أو مسلماً، مآله إما إلى أن تدركه حوافز التوبة والإنابة، فيكون من المغفورين ومن ثم يكون من أهل البشارة، وإما إلى أن تستعمر الشهوات والأهواء المحرمة قلبه، فيختنق إسلامه وتنطفئ جذوة إيمانه، ومن ثم يكون من أهل النذير يتلقّاه بين يدي موته.

ثم إن هذا الذي أوضحته لك في معنى هذه السنة الربانية التي يعامل الله بها عباده، يثير ربما في نفوس بعض القراء الرغبة في معرفة السبيل الذي ينبغي أن يتخذوه، ليكونوا، إذا دنا الموت إليهم، من أهل البشارة، لا ممن يفاجؤون بالنذير.

وأقول: إن البيان الإلهي أوضح السبيل الموصل إلى هذه البشرى، وذلك في قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟﴾ [فصلت: ٤١/ ٣٠] من الآية التي افتتحنا بها الحديث عن هذه السُنَّة الربانية.

فمن قال: ربنا الله، بصدق، ويقين عقلي، ثم استقام على هذا القول وعلى اليقين به إلى الموت، فهو فيما يقرره بيان الله تعالى، من أهل البشارة عند الموت.

روى الحافظ أبو يعلى، بسنده، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: قرأ علينا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟﴾ ثم قال: قد قالها ناس ثم كفر أكثرهم، فمن قالها حتى يموت فقد استقام عليها.

وكذا رواه النسائي في تفسيره، والبزار وابن جرير عن مسلم بن قتيبة، ثم روى ابن جرير بسنده عن سعيد بن عمران قال: قرأت عند أبي بكر الصديق هذه الآية، وسألته عن معناها، فقال: هم الذين لم يشركوا بالله شيئاً، أي ماتوا وهم لا يشركون بالله شيئاً. ثم روى ابن جرير أيضاً من حديث الأسود بن هلال، قال: قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: ما تقولون في هذه الآية ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟﴾؟ فقالوا: أي ثم استقاموا من الذنوب فلم يرتكبوا ذنباً.

فقال: لقد حملتموها على غير محملها، قالوا: ربنا الله ثم استقاموا فلم يلتفتوا إلى إله غيره.

وروى ابن أبي حاتم بسنده عن عكرمة، قال: سئل ابن عباس رضي الله عنهما: أي آية في كتاب الله تعالى أرخص؟ أي أكثرها دلالةً على الرخصة واليسر، فقال: قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ﴾ أي استقاموا على شهادة أن لا إله إلا الله[١].

ولكن لا يوهمنَّك هذا الكلام أن المسلم بوسعه إذن أن يعتصم بعقيدة أن لا إله إلا الله ثم يمضي يعطي نفسه حظها من المعاصي كما تشاء، دون أن يفقد أهليته لهذه البشارة التي يتلقاها المؤمنون بالله عند الموت.

أجل .. فإن الاستسلام لهذا الوهم من شأنه أن يزج صاحبه في نقيض ما يأمل.

وبيان ذلك أن المعاصي لها تأثير كبير على القلب، إنها تطبع عليه ما سماه البيان الإلهي بالران، ألم يقل: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطففين: ٨٣/ ١٤]؟

فإذا كثرت المعاصي، يرتكبها الإنسان دون أن يتوب منها، امتدت على قلبه من ذلك غاشية من الران أورثته القسوة والغفلة، والانهماك في الشهوات والأهواء، فيذبل من جراء ذلك غرس العقائد الإيمانية في القلب، وينصرف الفكر هو الآخر عن ذكر الله وعن التأمل في

(١) راجع ما قاله كل من ابن جرير الطبري، وابن كثير في تفسير هذه الآية.

المآل وفيما هو مقبل عليه من أمر دينه، إذ تهجم عليه مشاغل الدنيا، وينهمك في آماله بها والتأمل في سبل التغلب على مشكلاتها.

فإذا وقع في سياق الموت واشتدت عليه بُرحاؤه، تبددت الأفكار السطحية التي كانت تطوف منه بالعقل الظاهر، وتطايرت منه لشدة الألم ووقعه، وظهر في مكانها ما كان يختزنه العقل الباطن، مما كان متعلقاً به عاكفاً عليه منصرفاً إليه، من شؤون دنياه ورغائبه النفسية، فتراه يهتف بمحابّه تلك وهو لا يعي شيئاً مما يهتف به. وهكذا يضيع إيمانه الذي كان يردد شهادته بلسانه أيام صحوه وعافيته، إذ لم تكن له جذور راسخة في القلب، ولم يكن يغذي إيمانه السطحي ذاك بكثير ذكر أو عبادة. فأنى تأتيه البشارة وقد فقد إيمانه في ضرام غاشية الموت التي أيقظته إلى ما هو مخزون في عقله الباطن، مما كان كثير الذكر له والاهتمام به والانصراف إليه أيام عافيته وصحوه؟!..

ولكن لا يوهمنك هذا الذي أقول أيضاً، بأن العصمة من المعاصي هي السبيل الذي لا بدّ منه لنيل هذه البشارة؛ فإن العصمة لا ينالها أحد إلا الرسل والأنبياء، وإنما السبيل إلى نيلها أن تجعل قلبك وقفاً على محبة الله وتعظيمه ومهابته، وذلك بالإكثار من ذكره ومن مراقبته، وبأن تربط النعم التي تفد إليك بالمنعم الذي أرسلها إليك، وأن تكثر من تلاوة كتابه بتدبر، فإذا غدا قلبك وعاء لمحبة الله عز وجل وتعظيمه، فإن تعاملك مع الدنيا واستخدامها لحاجاتك وعيشك سيظل بعيداً عن قلبك الذي حصّن بمحبة الله، فمهما نالك من نعيمها ومهما تقلبت في رغدها، فإن شيئاً من ذلك لن يسري بالران إلى قلبك، فإن حراسة ذكر الله ومراقبته تصده عن التسلل إليه فضلاً عن الهيمنة عليه.

ثم إن محبة الله هذه، وقد هيمنت على قلبك، ستحجزك عن الوقوع في المعاصي، فإن تغلبت نفسك عليك في ساعة غفلت فيها عن قلبك فارتكبت ما حرمه الله عليك من الأوزار، فإن حالك القلبية هذه مع الله ستقودك إلى التوبة والإنابة، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له، فيما يقول رسول الله ﷺ.

إن تعامل المسلم مع الدنيا ومبتغياتها، لا يعدّ مشكلاً في الدين، بل إن الإنسان أياً كان لا مفرّ له من التعامل مع الدنيا وأسبابها. وإنما المشكل الذي يجر خطراً بل أخطاراً وبيلة على الدين، أن تحتلّ الدنيا من كيان المسلم قلبه، فيغدو عندئذ حبه وقفاً لها بدلاً من أن يكون حبه لمولاه الذي أكرمه بها.

وعلاج هذه المشكلة أن يتعهد المسلم نفسه بورد دائم من ذكر الله ومراقبته وتلاوة كتابه، ومن أعظم أنواع الذكر ربطك النعم كلها بالمنعم، تتلقاها وأنت متذكر بأنها رسائل حب وفدت إليك من عند الله عز وجل. إن مما لا ريب فيه أنه ما من مسلم يَحيا ذكر الله في قلبه بهذه الطريقة إلا فاض قلبه حباً لله وتعلقاً به وذكراً له. فعندئذ لا تضره المعاصي التي قد ينزلق إليها، لأنه سرعان ما يتوب منها، ولا تضره دنياه التي يتعامل معها، لأنها تظل بعيدة عن قلبه، ولأنه لا يتعامل معها إلا كما يعامل السيدُ خادمَه، يمتطيها مركباً ذلولاً إلى مرضاة الله، بدلاً من أن تمتطيه عاشقاً لها متولهاً بها، تقوده إلى سخط الله وعقابه.

فهذا المسلم السائر على هذا النهج، يبشره الله في محكم تبيانه بالبشارة التي سيلقاها يوم تحين ساعة رحيله إلى رحاب الله، ولا ريب أن تلك البشارة التي وُعد بها، ستخفف من بُرَحاء الموت وآلامه

عليه، بل المأمول من رحمة الله وفضله أن يكون له من تلك البشارة آنذاك ما يشبه وقع المخدّر إذ يجنّبه الشعور بآلام العمل الجراحي.

فلنبذل اليوم - يا أخي القارئ - كل ما نملك من جهد في اتباع السبيل الذي ذكرته لك، كي نكون أهلاً لتلقي هذه البشارة الكبرى عندما نقع في سياق الموت. وما ذلك على الله بعزيز.



قراره القائل:
ومن نُعمّرهُ نُنكِّسهُ في الخَلق

النكس في اللغة القلب، تقول: نكست الوعاء أي قلبته، ونُكِسَ الرجل انقلب على رأسه، ثم أصبحت تستعمل بمعنى رجوع الشيء من حالة الكمال إلى ما كان عليه من النقص والضعف. ومنه قول الله تعالى: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [يس: ٣٦/ ٦٨].

والآية تعني أن الإنسان بعد بلوغه مرحلة الكمال في القوة يبدأ بالنقص، فكلما تقدم به العمر تراجعت في كيانه القوة. تلك سنة قضى بها الله في حق عباده جميعاً.

ومثل هذه الآية في الدلالة على المعنى ذاته قول الله تعالى: ﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾﴾ [الروم: ٣٠/ ٥٤].

ولكن ما هو الحدّ الذي يقف عنده تراجع القوة في كيان الإنسان إلى الضعف؟ الحدّ هو الموت، إذ هو منتهى الضعف الذي قضى الله أن يصير إليه الإنسان.

أجل .. الموت منتهى الضعف الذي لا بدّ أن يتراجع إليه الإنسان، ولكن ربما جاء الموت في آخر مراحل التدرج نحو

الضعف، كالشيخوخة التي تنتهي بالموت، وربما جاء مقتحماً مرحلة القوة والشباب.

أي إن الموت أقصى مراحل الضعف التي قضى الله أن يتدرج الإنسان منها إليه. ولكن ربما مضى قضاء الله بالإنسان إليه قفزاً فوق مراحل التدرج في الضعف. وعلى كل فهي سنة واحدة تشمل الحالتين، ويشملهما قول الله تعالى: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي ٱلْخَلْقِ﴾.

* * *

ثم إن هذه السنة الإلهية تتضمن تحدياً بالغاً لادعاء من يؤله العلم، ويجعله - فيما يزعم - حاكماً على الطبيعة. ولعل أصحاب هذا الزعم في مجتمعاتنا كثيرون.

ومصدر هذه اللُّوثة في أفكارهم، أنهم لما رأوا تسخير الله جُلّ المكونات لمصالحهم إنْ عن طريق الاستخراج والإبداع واكتشاف السبل والخواص، أو عن طريق الاستخدام المباشر من الله لها، ظنوا - وقد حجبوا عن فاعلية الله لها وإخضاعها لمصالحهم ومبتغياتهم - أن مفتاح ذلك إنما هو العلم الذي يتمتعون به، إذن فالمشكلة إنما تكمن في تحديات الطبيعة، وإنما الذي يحطّم تحدّياتها ويخضعها لإرادة الإنسان وقراره، شيء واحد، هو العلم. إذن فليس في الكون وفي كيان الإنسان ما يستعصي على رغبة الإنسان وقراره، إذا تمتع بالعلم. ذلك هو مصدر اللوثة في أفكارهم وتصوراتهم.

ولكن هذه السنة الربانية التي نتحدث عنها، تتحدى علومهم،

وتستنهض قدراتهم، مجتمعين ومتفرقين أن يخترقوا هذه السنة ويدحضوها، بكل ما يملكون من حيل الفكر وبدائع الصنع.

ولو أن العلم هو مفتاح كل مغلق، وأداة تيسير لكل عسير، وعلاج كل مستحيل، إذن لقضى العلم منذ دهر طويل على آفة المشيب، ولحرر الإنسان من الضعف الذي يتربص به، ولأعدم الموت الذي يتخطف الإنسان وهو أهنأ ما يكون بنعيم الحياة.

إن هذه السنة الربانية التي قضى بها الله في حق الإنسان، تقول لأصحاب هذا الزعم من أدعياء العلم: ها إن قرار الله قضى قضاءه المبرم بأن ينجلي عنكم ليل الشباب ورونقه، وأن ينتشر في رؤوسكم بياض الشيب وما يبعثه في وجوهكم من تغضن وذبول. فمالمفاتيح العلوم المتنوعة لا تقوى على حمايتكم من هذا النذير المرعب؟ ها أنتم جربتم، ولا تزالون، جميع الوسائل والأسباب، وسائر الأدوية والعقاقير، وكل الطلاسم والتعاويذ، لاستعادة أحلام الشباب حقيقةً ماثلةً عائدةً، كعودة العافية بعد المرض، ولكنها جميعاً خذلتكم وما تزال.

ما الفرق؟ ولماذا؟.. لماذا استطاع طبّكم أن يمحو بياض البرص على الأبدان، ولم يستطع، مع أضعاف المحاولات الأخرى، أن يمحو بياض الشيب على الرؤوس؟

لماذا تظل الأمراض المختلفة التي تبعث الضعف في الجسم، خاضعة للمعالجة والمداواة التي تذهب بها في كثير من الحالات، فإذا العافية قد عادت وإذا القوة قد رجعت كما كانت، حتى إذا دبَّ (مرض) المشيب في الأطراف والأعضاء، وانتشر فيها الضعف بعد

القوة، واستحكم العجز بعد المقاومة، أَلْفَيْتَ الوسائل الطبية كلها، وأنواع الأدوية على اختلافها، والمخترعات المخبرية والكيميائية والأمصال المستخلَصَة جميعَها عاجزة عن إعادة القوة وترسيخها في مكان الضعف.

ما للوسائل الطبية والعلمية التي كم أعادت العافية بعد المرض، ونشرت القوة بعد الضعف، لا تقوى اليوم على الشأن ذاته؟ لماذا لا تعثر على العافية التي ضيعها المشيب، لماذا لا تطرد الضعف الذي تحكم بالجسم في مكان القوة التي كانت سارية فيه؟!..

إن كانت المسألة صراعاً بين الطبيعة والعلم، وإن كان المآل في ذلك إلى انتصار العلم، فماللعلم أعلن عن عجزه أمام هذه المعضلة؟ أليست هي معضلة الطبيعة التي لا سلطان في الكون - على حدِّ فهمكم - لغيرها؟ فلماذا لم يتغلب سلاح العلم عليها؟

رأيت خلال حياتي كثيراً من رجال العلم والفكر، الذين عاشوا حياتهم الغابرة لا يستأنسون فيها إلا بالعلم، ولا يجدون سلواهم ضد المصائب والآلام إلا من خلال الركون إلى العلم، ومن ثم لم يعثروا في شتى تقلباتهم الفكرية على إله يتحكم في الكون غير العلم.. رأيتهم في أَخَرَةٍ من الحياة التي قُسِمَت لهم، وقد فارقهم أنيسهم الذي كانوا يؤلهونه، وخانهم الرفيق الذي كانوا به يستنجدون وعليه يعوّلون، وقد تحكمت في أبدانهم أنواع الآفات، ونال منهم الضعف والونى، وتحكم في رؤوسهم ووجوههم بياض الشيب وتجاعيده وخطوطه.

رأيت الكثير منهم وقد زجتهم خيبة الآمال في وحشة لا مفرّ لهم منها، وقد خانهم العلم الذي طالما استأنسوا به، وغاب عنهم إلى

غير رجعة، رأيتهم ينهلون من أخيلة الماضي ويعيشون على ذكريات الشباب، ويسترجعون ما بقي في ذهنهم من عبق اللذائذ والشهوات، التي لا تقوى أخيلة العلم وحيله على استرجاع شيء منها.

ثم رأيت بعيني كيف أسلمتهم تلك الوحشة التي تطاولت عليهم ثم لم تُفْلِتْهم، إلى أمراض نفسية عجيبة أقلّها الكآبة.. ثم إن الكآبة أسلمتهم بدورها إلى السكون بعد الحركة، وإلى اجترار الهمّ بعد تألق الفكر، فكان لا بدّ لكل منهم من وجود من يرعاه في عيشه وتحضير طعامه وشرابه، بعد أن كان هو القائم بأمر نفسه، بل كانت إليه رعاية غيره من ذويه وربما من بني وطنه!.. كانت العاقبة التي لا بدّ منها اللجوءَ إلى دور العجزة والمسنين وذوي الأمراض والعاهات النفسية. ولا أدري إن كان فيهم، على الخصوص، من التجأ، من دون ذلك إلى الانتحار[١].

تلك هي الأرباح التي عاد بها أولئك الذين عاشوا يؤلهون العلم من دون الله.

فما الأرباح التي يعود بها المؤمنون بسنن الله الماضية في عباده، الموقنون بأن العلم وحقائقه، ليست إلا قوانين بثها الله في ملكوته وأدار عليها نظام ملكه؟

إن الأرباح التي عادوا بها، أنهم لم يقعوا في الوحشة بعد الأنس، ولم يعانوا من الحيرة بعد العلم، ولم يفاجَؤوا بنقيض ما كانوا يؤمِّلون، رحبوا بمقدم المشيب الذي شاءه الله لهم، كما استأنسوا قبل ذلك بالشباب الذي تقلبوا في لذائذه.

---

(١) بوسعك أن تجد في المجتمعات الغربية الكثير من هذا القبيل.

ثم إن حقائق العلم، التي هي - كما قلت لك - قوانين الله في كونه، بينت لهم الفرق بين عوارض الأسقام والآلام والضعف التي تنوش الإنسان في مختلف أحواله وتقلباته، وبين السنة الربانية التي قضت بالضعف بعد القوة، وبالمشيب وبياضه بعد الشباب وسواده.

أما تلك العوارض فخاضعة للعلاج، وقد صدق رسول الله ﷺ القائل: «ما أنزل الله من داء إلا وأنزل له شفاء إلا السام»[1] أي الموت وأسبابه.

وفي حديث آخر رواه الأربعة[2]، وأحمد في مسنده، من حديث أسامة بن شريك أنه صلى الله عليه وسلم قال: «تداووا عباد الله، فإن الله تعالى لم يضع داء، إلا وضع له دواء، غير داء واحد: الهرم».

إذن فالهرم، أي المشيب، لا دواء له، لأنه سنة من سنن الله الماضية في عباده، وليس من عوارض الأسقام والآفات الخاضعة للعلاج، بل التي يُطلب من الإنسان فيها البحث عن عوامل التغلب عليها بكل الوسائل المتاحة بين يدي الإنسان.

ومن زعم أن الهرم أو المشيب ليس إلا من تحديات الطبيعة، وأنه سيتغلب بالعلم عليها، فقد أبعد النُّجعة، وتطاول إلى ما لا يتأتى له أن يبلغه، وستكون عاقبة محاولاته وجهده ما وصفته لك من حال من ودعهم العلم إلى غير رجعة، وأطبقت عليهم سنة الله في عباده، فنالتهم من ذلك الوحشة بعد الأنس، وأمضوا بقية حياتهم تحت وطأة الكرب، والكآبة، ومرهقات الليالي والأيام.

---

(١) رواه ابن ماجه من حديث أبي هريرة.

(٢) الأربعة هم: أبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه.

وصفوة القول أن الحقائق العلمية، فيما يقرره العلم، جملة القوانين التي أقام الله مملكته الكونية عليها. وضرورة التعلم في حياة الإنسان إنما تعني ضرورة التعرف إلى قوانين الله التي بثها في كياناتنا وفي المكونات التي من حولنا كي نتبين سبيل التعاون السليم معها.

إن معرفتنا لقوانين الله هذه تضعنا أمام الحقيقة التالية:

في القوانين التي أقام الله كيان الإنسان وأنظمة الكون عليها، ما هو خاضع للتسخير والتطوير، وقد أمكن الله الإنسان من تسخيرها وتطويرها لمصلحته، والمطلوب منه فيما ينص عليه خطاب الله أن لا يبغي بذلك إفساداً بعد صلاح، وأن يتجه في تطويرها إلى ما يتفق مع مصلحته ومصلحة الأسرة الإنسانية عموماً.

من ذلك قواعد الصحة وأسباب الأمراض وسبل التخلص منها، ومن ذلك قواعد الفلاحة والاستنبات والأغذية النباتية والحيوانية وما يتعلق بقانون دوران المياه، ومن ذلك نظام استخلاص المعادن وسبل الاستفادة منها وإقامة الصناعات على أساسها.

إن الله قد أمكن الإنسان من التصرّف بهذه المسخرات وأن يطورها وأن يغير ويبدل من فاعليتها ونظامها، ولكن الله جل جلاله حذّر الإنسان من أن يسخرها ويتوجه بها إلى الإفساد والإضرار بمصلحة الأمة، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ [الأعراف: ٧/٥٦].

فهذه نماذج للقوانين الموضوعة بين يدي الإنسان ذات العلاقة بكيانه أو بالمسخرات الكونية المذللة لخدمته، يملك أن يوجهها وأن يتصرف بها كما يريد. ولا شك أن للعلم دوراً وأيّ دور في ذلك.

غير أن هنالك قوانين أخرى أقامها الله في حياة الإنسان، وفي بنيان المكونات من حوله، غير قابلة لأي نقض لها ولا لأي تغيير فيها، وهي التي يعبر عنها بيان الله تعالى في القرآن بالسنن، ويؤكد لنا دوامها واستعصاءها على أي تبديل.

فهو يقول: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٣٥/ ٤٣].

ويقول: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفتح: ٤٨/ ٢٣].

ويقول: ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾﴾ [الإسراء: ١٧/ ٧٧].

إذن فالحقيقة العلمية تقول لك: إن السنن الإلهية المبثوثة في الكون أو التي يعامل الله بها عباده غير خاضعة لإمكان التغيير فيها والتطوير لها. فمن توهم أنه يستطيع اعتماداً على جملة ما يحفظه في ذهنه من القواعد العلمية، أن يستخدمها في محو هذه السنن أو تغييرها أو تطويرها، فقد اعتمد في هذا الذي توهمه على جهالة عمياء، فإن ما يحفظه في ذهنه مما يسميه العلم، إنما هو جملة قوانين بثها الله في كونه، وهل في العقلاء من يقول: إن بوسعه أن يعتمد على قوانين الله، للسعي على إلغاء سننه؟!..

ثم تأمل في دقة بيان الله في حديثه عن سننه في عباده. لم يقل: ولن تجد لسنة الله شذوذاً، أو ولن تجد لسنة الله خرقاً، وإنما عبر بكلمة «التبديل» و «التحويل»، وأنت تعلم أن معنى التبديل والتحويل

زوال السُنَّة الماضية في عباده، وحلول غيرها في مكانها، وهذا ما نفاه البيان الإلهي في نص صريح قاطع متكرر.

أما معنى دخول الشذوذ أو الخرق فيها، فهو أن يقضي الله بغيابها لمناسبة أو تكريماً لولي أو معجزة لنبي، ثم سرعان ما تعود السنة إلى استقرارها ورسوخها. وهذا مما قد يجريه الله على يد أحد من أنبيائه أو تكريماً لبعض من أصفيائه.

إذن فهذه سنة من سنن الله المقررة الماضية في عباده، لا يقوى علم العلماء ولا اختراع المخترعين، ولا أدوية الأطباء وعلاجاتهم، في أي عصر من العصور، على تحويل هذه السنة إلى غيرها أو على محوها والقضاء عليها.

وحسبك هذا دليلاً ناطقاً بألوهية الله، وقيوميته الدائمة على الكون.



قراره القائل:
كلُّ نفسٍ ذائقةُ المَوت

ولأمر ما شاء الله عز وجل أن يصرّف في بيان هذه السنة، بألوان من التعبير عنها ومن التأكيد لها.

إنه يقول: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٤/٧٨].

ويقول: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾ [الجمعة: ٦٢/٨].

ويقول خطاباً لرسوله محمد عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الزمر: ٣٩/ ٣٠].

هذا إلى جانب قوله - وهو عنوان هذه السنة -: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٨٥].

كل نفس ذائقة الموت!..

إطلاق لا قيد فيه، وعموم لا مخصص له، وشمول ليس للدنيا كلها أن تجعل له حداً.

فليأت دعاة العلم الحديث، والرقي الحضاري، ومتوثبو الغزو الفضائي، فليجمعوا أمرهم وليضفروا جميع إمكاناتهم، وليحشدوا

أقمارهم المصنوعة ومراكبهم المشروعة، وعقاقيرهم المخترعة، فليستعينوا بذلك كله على أن يزيحوا عن أنفسهم شيئاً من سلطان هذا الموت الذي قهرهم واستذلَّهم، وليبطلوا بذلك ولو جزءاً من هذا التحدي الإلهي: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ﴾.

فإن هم نجحوا في ذلك، فإن لهم حينئذ أن يؤلهوا العلم الذي هيمن سلطانه على رؤوسهم وغدت مفاتيحه في قبضتهم، ومن ثم فإن لهم أن يشيدوا لأنفسهم صروحاً عالية من الجبروت والطغيان والتأله والكفران.

وإلّا فأحرى بهم أن يفكروا في القبور التي سيمتدُّون في أحشائها، والتراب الذي سيُهال عليهم، وفي القبضة التي لن ينجوا من حكمها.

إذن فالموت هو الحقيقة التي يسقط عندها جبروت المتجبرين وعناد الملحدين، وطغيان البغاة والمتألهين[١].

إنه السنّة الكبرى التي تمد صفحة هذا الوجود كله بغاشية الانتهاء وتحيطه بظلام الفناء، والتي تصبغ الحياة البشرية بصبغة العبودية والذل لقهار السماوات والأرض، والتي تنغض الرؤوس لربنا القائل: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن: ٥٥/ ٢٦-٢٧].

إنها السنة القاهرة التي تسربل بها (طوعاً أو كرهاً) العصاة

---

(١) هذه الأسطر نقلتها من كتابي «فقه السيرة» عند الحديث عن وفاة رسول الله ﷺ.

والطائعون، والرؤساء والمتألهون، والرسل والأنبياء، والمقربون والأصفياء، والأغنياء والفقراء، وأدعياء العلم والاختراع!..

إنها السنة التي تعلن على مدى الزمان والمكان، وفي أُذُني كل سامع، وأمام بصر كل راءٍ، وتحت بصيرة كل مفكر، أن لا ألوهية إلا لله وحده، وأن لا حاكمية إلا لذلك الذي تفرد بالبقاء، ذاك الذي لا مردَّ لقضائه، ولا حدود لسلطانه، ولا مخرج عن حكمه، ولا غالب على أمره.

وهل من حقيقة كونية تنطق بهذه الدلالة العظمى، نطقاً لا لبس فيه، أعظم من هذه السنة، سنة سكرة الموت، إذ يقهر الله بها سكان هذه الدنيا كلها، منذ فجر الوجود إلى أن تغيب شمسه؟..

لقد مرَّ في معبر هذه الدنيا كل أولئك الذين أسكرتهم أوهام الربوبية الزائفة، واستمسكوا بعروشهم التي استلهموا منها الخلود، وغرقوا في شبر من القوة التي ماج وهمها من حولهم، والعلوم التي حجبتهم عن دنيا جهالاتهم؛ ولكن سنة الموت هذه سرعان ما قذفت بهم إلى بيداء العبودية لله، وأيقظتهم إلى صحو التذلل لقيوم السماوات والأرض، فقدموا على الله عبيداً أذلاء خاضعين.

إنهم اليومَ، وقد أعجزتهم الحيلة عن الوصول إلى سبيل يحررون به أنفسهم من عادِيَة الموت هذه، وباءت تجاربهم العلمية الكثيرة المتنوعة، التي جندت لهذه الغاية، بالخيبة، يتسلّون بهذه الإنجازات الحديثة التي يعكفون على إزجاء أوقاتهم بها.

وإني لأعلم علم اليقين أنهم لو عثروا على علاج ما، وظنوا أنهم إن نجحوا في استحضاره واستخراجه على الوجه المطلوب،

لاستطاعوا أن يتحرروا باستعماله من عادية الموت، إذن لأعرضوا عن كل ما هم منصرفون إليه من إنجازاتهم العلمية وإبداعاتهم الحضارية ومعايشهم الاقتصادية، ولتفرغوا جميعاً لاستخراج هذا العلاج الذي قد ينجيهم من قرار الموت الذي يلاحقهم ويخترق إليهم الإنجازات العلمية والمناعات الطبية وأسلحتهم التدميرية.

* * *

وما الموت؟

إن قصارى ما علمه الإنسان، لا سيما إنسان الحضارة الحديثة، أنه انقطاع ما يسمى (الحياة) عن الجسم، ومعنى انقطاع الحياة عن الجسم قعود أعضائه الظاهرة والخفية عن وظائفها، وفي مقدمتها القلب؛ إذ تهدأ نأمته وتنقطع حركته ويقعد عن وظيفة ضخ الدم في أجزاء الجسم، وسرعان ما تقعد بقية أجزاء هذا الجهاز العجيب عن وظائفها، وعندئذ يغيب الإحساس والشعور إلى غير رجعة، ويقعد الدماغ عن إرسال أوامره، وأداء وظائفه، وتنظر وإذ الجسم الذي كان يغلي تألقاً وحركة ونشاطاً، قد استحال إلى جثة هامدة يبعث مظهرها الرعب، وقد غاب عنه كل ما كان يفور وينشط ويتحرك فيه.

ولكن ما الذي غيّب كل ذلك عن الجسم وأجهزته وأجزائه وأعضائه، وقد كان كل شيء فيه يقوم بشأنه ويؤدي وظيفته (وأنا أتحدث عن الحالات التي يهجم فيها الموت دون سابق إنذار من مرض أو حادث ونحوه)؟ ليس في مَخزون المعارف الطبية قديمها وحديثها، إجابة علمية عن هذا السؤال، ذلك لأن العلم، مهما تطور، إنما يرصد من حقيقة الموت نتائجه وآثاره التي يتركها

على الجسم ودخائله. أمّا حقيقته التي يتسبب عنها كل ذلك، فشيء لا سلطان للعلم عليه، ومن ثم لا سبيل له إلى رصده وفهمه.

إذن فالخبر اليقين إنما هو عند البيان الإلهي الصادر ممن خلق الموت والحياة.

وينبئنا البيان الإلهي أن حياة الإنسان كما تبدأ بنفخ الله روحاً من روحه في كيانه، فإنها تنتهي بخروج هذه الروح منه.. إذن فمصدر الحياة التي تسري في كيان الإنسان، هو سريان الروح فيه؛ فهي التي تبث في خلايا الجسم الإحساس والشعور، وهي التي تنعكس على الدماغ فتبث فيه الفكر والإدراك، وتنعكس على عضلة القلب فتثبت فيه العواطف الدافعة والرادعة والممجدة. وتحمل كل جهاز من أجهزة الجسم على أداء الوظيفة المنوطة به.

ولكن لماذا استعصى إدراك جوهر كل من الحياة والموت على العلم؟ في حين أن نتائج كل منهما وآثاره لم يشرد شيء منها عن الخضوع لمعرفته ولتحليله ربما؟

والجواب: أن آثار سريان الروح في الجسد ظاهرة مادية جلية، لا تستعصي على التجربة والإدراك، وآثار خروج الروح من الجسد هي الأخرى ظاهرة مادية جلية، أما العامل الخفي لكل منهما فشيء لا تبلغ حقيقةُ العلم إدراكَ كنهه.. إن العلم أياً كان عصره، وأياً كان الرأس الذي هو فيه، ليس من شأنه أن يعلم حقيقة الروح التي لا علم لنا باسمها ولا بشأنها، لولا إخبار الله لنا عنها.

فما حقيقة الروح؟ لم يقل العلم أي كلمة علمية بشأنها أو التعريف بها إلى اليوم.

إذن لا سبيل للعلم أن يكشف لنا كيف سرت الروح في الهيكل الجسدي للإنسان فأورثته الحياة، ومن ثم فلا سبيل للعلم أيضاً أن يكشف لنا كيف خرجت أو أخرجت هذه الروح من أجزاء الجسد وخلاياه بعد أن استوطنت فيه.

وإذن فلا سبيل للعلم أيضاً إلى أن يخترق قانون الله الذي قضى به على عباده (الموت) ما دام أن لا سبيل إلى إدراك حقيقته المتوقف على معرفة الروح التي بها يتحقق كل من الموت والحياة. وهكذا فهي سنة ربانية ماضية تستعصي على كل مقاومة لها وتتسامى على كل محاولة للتغيير فيها أو القضاء عليها.

وصدق الله القائل: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء: ١٧/ ٨٥].

* * *

ولكن البيان الإلهي أخبرنا أنه سخر بعض ملائكته لاستخراج الروح من جسد الإنسان، عندما تحين اللحظة التي تنتهي عندها حياته الدنيوية في علم الله وقضائه، فقال عز وجل: ﴿۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾ [السجدة: ٣٢/ ١١]، وقال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: ٦/ ٦١]، والمراد بالرسل الملائكة الذين سخرهم الله لقبض الأرواح، وهم جنود يتحركون تحت قيادة من سماه الله تعالى «ملك الموت».

واعلم أن كل ما يتعلق بجوهر الموت ومعناه، والروح التي بها تنشأ الحياة، وبها تنطوي وتزول، وكل ما يتعلق بطريقة خروج الروح

من الجسد والملائكة المسخرين لذلك، خارج عن الدائرة التي يمكن أن يتحرك فيها العلم، إذ هي من الغيب الذي لا سبيل للعقل إلى إدراكه إلا عن طريق الخبر الصادق إذ يفد إليه من مصدر صادق. وقد أوضحت لك هذه الحقيقة التي لا مردّ لها، في كتابي «كبرى اليقينيات الكونية» خلال التمهيد المعنون بـ «منهج المعرفة عند المسلمين وغيرهم».

فمن آمن بالله وأيقن بألوهيته إلهاً واحداً يدير شؤون هذا الكون كله، استيقن خبر الله عن الموت وحقيقته والملائكة المسخرين لاستخراج الروح من الأجساد التي قضى عليها بالموت.

غير أن هذه الحقيقة الغيبية التي نستيقنها عن طريق الخبر الصادق الوارد إلينا في كتاب الله (القرآن) ستتحول إلى حقيقة مرئية محسوسة عندما ننتهي إلى الميقات المحدد المخبوء في علم الله، ميقات خروج الروح من الجسد، وانتقالنا إلى الحياة البرزخية، سيرى كل منا بعيني رأسه ما كان خافياً عنه، وصدق الله القائل للإنسان وعما سيراه في ذلك الحين: ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾ [ق: ٥٠/ ٢٢].

ولكن في الناس من لا يزيدهم انكشاف الأمر لهم إذ ذاك، بعد خفائه عنهم، إلا استكباراً وعناداً، ولعلك عرفتهم من خلال الحديث عن سنة أخرى مرت بك في هذا الكتاب. وفي الناس من يجعل الله لهم من تلك الساعة الفاصلة رُقيةَ إنابة إلى الله، ولعلك عرفت هذا الصنف أيضاً من خلال الحديث عن سنة أخرى، غير هذه وتلك، سبق بيانها وبيان أهلها من قبل.

ولو أنك تتبعت حال كثير من الناس إذ تحين ساعة ارتحالهم من هذه الدنيا، ساعة توديع الروح لجسدها وانفصالها عنه إلى ميقات محدود، لرأيت بأم عينيك كلًّا من النموذجين، لرأيت الذين يصطلحون مع الله ويعودون إليه لائذين به بعد طول إعراض وشرود، ولرأيت حال الذين لا تزيدهم تلك الساعة إلا عتواً واستكباراً، ومعانقة لأخيلة الأهواء والشهوات التي فارقتهم والتي حيل بينها وبينهم إلى غير رجعة.

وها أنا ذا أضعك أمام صورة واقعة مرئية لكل من هذين النموذجين:

إليك أولاً هذا النموذج المرعب:

فلان من الناس من أسرة معروفة في دمشق، عاش يجمع رزقه ويطعم أهله وأولاده مما يجنيه من أماكن اللهو والميسر، معرضاً عن نداء الله وفرص الاصطلاح مع الله. وقع في براثن مرض عضال. ولما غشيته ساعة الموت ذبل منه الجسم وجحظت فيه العينان وراح يصعق فيمن حوله: مَنْ هذا الذي اقتحم داخلاً عليّ، مَن؟.. عليّ بالمسدس، عليّ بالمسدس، وظل يكررها، حتى خفَتَ منه الصوت وتداخلت على لسانه الحروف، ثم سكت وأسلم الروح!..

وإليك ثانياً هذا النموذج الآخر المؤنس:

امرأة بريطانية لها ابنة مسلمة ظلت تدعو أمها إلى الإسلام وتحببه إليها، فتجيبها الأم بالتسويف.. وقعت هي الأخرى في براثن مرض عضال، أحيلت إلى المشفى للمعالجة، ولازمتها ابنتها المسلمة تمرّضها وتنظر في شأنها، ثم إنها دخلت هي الأخرى في غمار

الموت، يقول شهود عيان: فما هو إلا أن فتحت عينيها وشهدت شهادة الإسلام بلسانها وسبابتها، ثم قالت بإنكليزيتها: مرحباً بملائكة الله.. مرحباً بملائكة الله. ثم أسلمت الروح.

ولتعلم أن كلتا الصورتين لهذين النموذجين ثابت وواقع ومؤكد، ليس في أي منهما نسج لخيال، أو تزيّد أو تنقيص.

هذا ولو لم يكن في السنن التي يأخذ الله بها عباده، إلا سنة الموت وحديث الروح، وقصة سريانها في كيان الإنسان، ثم خروجها في الوقت المحدد من جسده، لكفى ذلك برهاناً ساطعاً على ربوبية الله وألوهيته لعباده، وعلى أنه وحده قيوم السماوات والأرض، وأن إليه المرجع والمآل، وعلى أن الشقي من عرف الله واستكبر على سلطانه، ولم يعترف بذل العبودية له، وأن المرحوم والسعيد من عرف الله فدان بذل العبودية له، وجعل من صدق الانكسار له سلّم الوصول إلى مرضاته ومغفرة ذنوبه.



قراره القائل:
إنَّ اللهَ لا يُغيرُ ما بقوم حتّى يُغيرّوا ما بأنفسهم

هما آيتان في كتاب الله تعبران عن هذه السُنَّة الهامة من سنن الله في عباده.

أما الأولى، وهي الأشمل والأعم، فهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١٣/ ١١].

وأما الثانية، فهي قول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: ٨/ ٥٣].

ولنبدأ بالوقوف عند الآية الأولى، ولنتأمل في حبكها الصياغي، الذي يبث في الذهن حالتين متناقضتين قد تتعرض لهما الأمة أو الجماعة، ينطبق على كليهما حكم هذه السنة الإلهية الشاملة.

يقول الله تعالى: إنه عز وجل لا يغير ما تلبس بقوم من حالة السوء والضنك؛ أي لا يزيلها ولا يُبْدِلُ بها نقيضها وهي حالة الأمن والرخاء والخير، حتى يبدؤوا هم فيصلحوا نفوسهم بتزكيتها ويطهروها من شوائب السوء والأخلاق الذميمة.

فهذا ما تتضمنه السنة الإلهية التي تعبر عنها هذه الآية، إذ تعالج الحالة الأولى.

ويقول الله عز وجل في الآية ذاتها: إنه لا يغير ما تلبس بقوم من

حالة النعيم والأمن ورغد العيش، ولا يبدل بها نقيضها وهو البؤس والشدة والبلاء، حتى يبدؤوا هم فيكفروا بعد الشكر، ويتظالموا بعد العدل، ويركنوا إلى الفسوق والعصيان والعتوّ والاستكبار.

وهذا ما تتضمنه هذه السنة الربانية التي تعبر عنها هذه الآية ذاتها في معالجة الحالة الثانية.

أي إن هذا النص القرآني الجامع يقول: لن يرفع الله حالة أمة أو جماعة من وهدة التخلف والضياع، حتى تسمو بنفسها وذاتيتها إلى مستوى التزكية النفسية والخلق الرشيد، ولن يهوي بأمة أو جماعة من صعيد الأمن والقوة ورغد العيش إلى وهدة الشقاء والضياع، حتى تتدنّى بنفسها إلى هاوية الفساد والأخلاق الذميمة.

فهي سنة صيغت بعبارة بليغة ذات قرار مزدوج، يحكي حالتين اثنتين تتعرض لهما الأمة أو الجماعة، مع حكم رباني ملائم لكل منهما.

إذن فصلاح المجتمعات الإنسانية، ينطلق ويبدأ من صلاحية النفوس فيها وإنما تتحقق صلاحيتها، بتجردها من الأخلاق الذميمة والطبائع المسترذلة، كالكبر والضغينة والأثرة والحسد، والتكالب على حظوظ النفس، والجشع في تعقب أسباب الغنى وبسطة الرزق. وقد عبر البيان الإلهي عن السعي إلى التجرد عن ذلك كله بكلمة (التزكية) وذلك في مثل قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس: ٩١/ ٩-١٠] أي النفس، وقوله: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝١٨ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ۝١٩﴾ [النازعات: ٧٩/ ١٨-١٩]، وقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ۝١٥﴾ [الأعلى: ٨٧/ ١٤-١٥].

وفساد المجتمعات الإنسانية إنما ينتشر ويعم من جرّاء فساد النفوس وانطوائها على الرذائل والأخلاق الذميمة، التي تناقض معنى التزكية التي يدعو إليها، كما رأيت، كتابُ الله عز وجل.

وبقطع النظر عن المعنى الديني الكامن في هذه السنة، فإن واقع المجتمعات الإنسانية خاضع دائماً لهذا القانون، ومن ثم فهو قاعدة ثابتة مطردة في علم الاجتماع.

وبيان ذلك أن نهضة المجتمع الإنساني، أياً كان، رهن بتماسكه، وهو لا يكون متماسكاً إلا بشيوع التعاون بين أفراده لتحقيق الأهداف المشتركة. ولا يتحقق التعاون إلا بشيوع الثقة فيما بينهم، وهيهات أن تتحقق الثقة سارية فيما بينهم، إن لم تتزكَّ النفوسُ وتطهرْ من شوائب الأخلاق السيئة والطبائع المرذولة التي عبر عنها القرآن بـ (باطن الإثم).

إن باطن الإثم: (فساد النفوس) إذا شاع وانتشر في المجتمع، فإن الشأن فيه أن يقطّع سبل التعاون بين أفراده، وإنما تمتد سبل التعاون بينهم عن طريق الثقة إذ يتبادلونها فيما بينهم. والثقة لا تحيا فيما بين نفوس تتصادم في سبيل الأنانية والأثرة، وتتنافس على الحظوظ وأسباب بسطة العيش. ومن ثم فإن مآل هذا المجتمع إلى أن يتفكك تركيبه وأن يتهاوى بنيانه.

وعن هذه الحقيقة يعبر قانون الله القائل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ ولْتعلم أن واقع المجتمعات تابع لقرار الله الذي قضى به في حق المجتمعات الإنسانية كلها، وليس قرار الله هو التابع لقانون المجتمعات وحالها. ذلك لأن الذي صاغ النفوس على

ما صاغها عليه هو الله، والذي سلك بها سبل التزكية والطهارة من شوائب الفساد هو الله، والذي جعل صلاح النفوس سبباً لصلاح المجتمع، وجعل فساد النفوس سبباً لفساده هو الله. إذن فواقع المجتمعات وقرارات علم الاجتماع، كل ذلك تابع لهذه السنة التي قضى بها الله في عباده وليس العكس.

* * *

ثم إن كلًّا من التاريخ الغابر بالأمس، والمتجدد اليوم، شاهد دائم على هذه السنة التي ينصّ عليها بيان الله عز وجل.

ما من دولة قامت ثم دالت، إلا وكان ذلك مصداقاً لسنة الله في عباده. قامت منبثقة من صلاحية نفوس أفرادها، تآلفوا في ظل من العدالة السارية فيما بينهم، فترسخت من جراء ذلك الثقة في قلب كل منهم تجاه الآخر، بل تجاه الآخرين. فازدهر فيما بينهم التعاون متنامياً في تربة تلك الثقة التي هيمنت على نفوسهم بعضِهم تجاه بعض.. فقامت دولتهم واشتدت أركانها وتنامت خيراتها، مع دوام صلاحية تلك النفوس.

ثم لما بدأت تختفي موازين العدالة، مع تزايد القوة والترف وانتشار رغد العيش، الذي لا بدّ أن تنبثق عنه غالباً طبائع البغي والاستبداد، اختفت مما بينهم الثقة التي كانت لُحمة تركيب الدولة وتماسك بنيانها، ومن ثم تقطعت فيما بين الناس سبل التعاون، وتحول فيما بينهم إلى تنابذ وخصام، فدالت عندئذ دولتهم وتحول بنيانها إلى أكواخ وأطلال.

تحت سلطان هذه السنة قامت الإمبراطورية الرومانية،

وترسخ بنيانها وهيمن سلطانها. وتحت سلطان هذه السنة ذاتها، سرى فيما بعدُ إليها الفساد، وساد فيها البغي والاستبداد، (فاستقرّ) فيها مرض التآكل، وتألبت الدولة على نفسها، ثم بادت بعد أن سادت[١].

وتحت سلطان هذه السنة عاشت الجزيرة العربية مهداً للجهالة والأمية، وساحة للخصومات والحروب والعدوان، ومضرب مثل للفقر والضعف والفرقة والشتات، إذ كانت النفوس تعاني أمراض الأثرة والأنانية، والضغائن والأحقاد المتبادلة، تلك التي سماها الله باطن الإثم.. لم يغير الله حال الجزيرة العربية تلك، ما بقيت نفوس الناس فيها تعاني من تلك الأمراض وتستسلم لتلك الطبائع المرذولة.

فلما تنبه أولئك الناس إلى الأدواء النفسية التي يعانونها، مع بعثة خاتم الرسل والأنبياء فيهم، وعلى إثر التعليمات والوصايا التي تلقوها منه، بعد أن آمنوا به، ووثقوا بصدقه، أقبلوا إلى أنفسهم يزكونها ويروضونها على الترفع عن الدنايا، فما هو إلا أن طهرت نفوسهم من سخائم الشحناء والبغضاء، وحلت في مكانها مشاعر الألفة والود، وغابت عنها الأنانية والأثرة، وحلت في مكانهما الغيرية والإيثار.

وإنما كانت أداةُ الطهر الذي أبعد عن نفوسهم تلك الأرجاس كلها، إيمانَهم بالله إلهاً واحداً لا شريك له أولاً، واصطباغَ نفوسهم بذل العبودية والمملوكية له ثانياً.

---

(١) انظر تفصيل قصة نشأة الإمبراطورية الرومانية، ثم غروب نجمها في «دائرة معارف القرن العشرين» الجزء الرابع، الصفحات من ٤٢٩ فما بعد.

فلما غيروا ما بأنفسهم من تلك الآفات والطبائع السيئة، وطهروها بالتزكية التي أوصاهم بها بيان الله عز وجل، غيّر الله ما كان قد تلبّس بهم من حال الضعف والجهل والتفرق والفقر والخصام، وأبدلهم بها القوة والعلم والتضامن والثروة والوئام.

ثم إن كلًّا من ظاهرتي الإقدام والإحجام، أو التقدم والتخلف، في تاريخ المسلمين بدءاً من بعثة رسول الله إلى يومنا هذا، إنما تم تحت سلطان هذه السنة الإلهية القائلة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾.

تأمل في حال تفرق الدولة الإسلامية الواحدة إلى دويلات متتابعة ووقوعها تحت غزو الصليبية وانبُشْ أسباب ذلك، تجد أنه تغيُّرُ ما بأنفس الناس، ولا سيما المسؤولين، إلى السوء والأدنى.

ثم تأمل النهضة التي أدركتها والقوة التي عادت إليها والنصر الذي حالفها في دحر العدوان الصليبي، وذلك جملة ما (غيَّر الله بهم)، تجد أن مرد ذلك إلى تغير ما بأنفسهم ولا سيما المسؤولين منهم إلى الأليق والأعلى.

عد إلى تفصيل هذا الذي أوجزه لك، في المصادر التاريخية، تجد مصداق هذا الذي يقرره بيان الله عز وجل، وأحب أن ألفت نظرك في هذه المناسبة إلى أن كتاب «البداية والنهاية» للحافظ ابن كثير من أوثق المراجع التاريخية المفصِّلة.

إن هذا القانون الإلهي ينطبق على عمر الخلافة العثمانية في حالتي الإقبال والإدبار، القوة والضعف، عد إلى المصادر الموثوقة تجد مصداق ذلك.

وإن هذا القانون ينطبق على حياة الدولة الأموية في الأندلس، في كل من أحوالها الصاعدة والهابطة.

انظر إلى سيرة عبد الرحمن الداخل الذي خرج طريداً وحيداً من بلاد الشام، يقطع الفيافي والقفار متجهاً إلى أقصى المغرب حيث نزل على قبيلة أخواله البربر مكرماً معززاً، ثم إنه دخل الأندلس، وفيها الكثير الذين استقبلوه من أتباعه.. انظر إلى ما يؤكده التاريخ من سيرته النفسية.. الأخلاقية.. فقد كان محباً للعدالة وإنصاف المظلومين، وكان يصرّ على أن يتتبع حال المظلومين ويجلس بنفسه إليهم لإنصافهم، كان شديد التواضع عن صدق لا عن تصنعٍ، يعود المرضى ويؤنسهم من نفسه ويؤم الناس بالصلوات الخمس، ويقوم الليل متعبداً متهجداً، يحضر الجنائز، ويخالط الناس خادماً لهم راعياً لشؤونهم، يأكل معهم ويجلس إلى موائدهم، ويرحب بقصَّاده من أهل الضرّ والحاجات.

هذا هو الشأن أو الطبع الذي يدخل في معنى ﴿مَا بِأَنفُسِهِمْۗ﴾، حسب التعبير القرآني.

فما الذي أثمره ذلك الطبع، بمقتضى تلك السنة الربانية، مما شاء الله أن (يغير ما بهم) أي بحال عبد الرحمن الداخل، حسب التعبير القرآني أيضاً؟

مكَّنه الله من إقامة إمارة أموية جديدة في الأندلس، وهو لا يتجاوز الخامسة والعشرين من العمر، ودخل قرطبة واستقر به المقام فيها، ومتعه الله بالقوة وجمع عليه قلوب الناس من مسلمين وغيرهم، وردّ عنه غائلة «شارلمان» أعتى ملوك النصرانية في أوربا وأشدهم حقداً

على الإسلام والمسلمين، ونصره عليه وعلى جنوده متعددي الجنسيات، وبسطت هذه الهزيمة الفادحة التي مني بها «شارلمان» سحابة سوداء على سمعته ومجده الحربي، عاشت في ذاكرة أوربا سنين طويلة[١].

فهذه هي صورة الإقبال والتغيير إلى الأفضل في قانون ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾.

أما الآن، فإليك صورة الإدبار أو التراجع في ذلك الصقع أو المجتمع نفسه، تحت سلطان هذا القانون ذاته.

ورث ملوك بني الأحمر الحكم بعد انتهاء عهد الموحدين، الذين كانوا لا يزالون يتمتعون من هذا القانون الرباني، بمرحلة القوة والإقبال.

تسربت الآفات والأمراض الأخلاقية إلى نفوسهم من جراء بسطة العيش وما قد تبعها من العكوف على الملهيات والمُنْسِيات، وشاعت البغضاء فيما بينهم، فغابت الثقة عن بعضهم تجاه بعض، ومن ثم انقطع حبل التعاون الذي كان سارياً فيمن كان قبلهم، وتحولت العلاقة فيما بينهم إلى تربص وعدوان، وإلى استعانة منهم جميعاً بالعدو المشترك.

فتلك هي الحال التي آل إليها ﴿مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾: انتكاسٌ إلى السوء وهبوطٌ إلى الفساد.

فماذا كانت النتيجة بمقتضى القانون الإلهي النافذ؟.. كانت النتيجة

---

(١) انظر تفاصيل ذلك في كتاب «صفحات من تاريخ الدولة الأموية والأندلس» للأستاذ محمد فيصل ملحم، من الصفحة ٢٦٨ فما بعد.

أن غير الله ما بهم من القوة إلى الضعف والعجز، ومن العزة إلى الذل، ومن النصر إلى الهزيمة، ومن الغنى إلى الفقر.

سقطت مدينة قرطبة في يد الأسبان، وحولوا مسجدها المتميز الفريد في العالم إلى كنيسة، ثم سقطت إمارات الأندلس الواحدة تلو الأخرى، ثم تلا ذلك سقوط غرناطة التي كانت بيد ملوك بني الأحمر المتخاصمين الذين دأب كل منهم في الاستعانة على حرب أخيه بفئة أو جند من الإسبان[١].

وخرج آخر أمراء غرناطة: أبو عبد الله الصغير طريداً مع أمه إلى صقع من أصقاع المغرب، حيث قضى نحبه هناك.

هذه صورة الإدبار والتراجع، بل النهاية.

وتلك صورة الإقبال والتأييد اللذين وصلا إلى إنشاء دولة.

وكلتا الصورتين مندرج في سنة الله القائلة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾.

* * *

بقي أن نتساءل: وحال الأمة الإسلامية والعربية اليوم، إلى أي الصورتين من هذه السُّنة الإلهية منتمية؟

والجواب أن بوسعك أن تعلم الحال التي تمرّ بها أو تنتمي إليها من الدخيلة النفسية التي ينطوي عليها أفراد هذه الأمة أو غالبيتها العظمى، وفي مقدمتها القادة وأولو الأمر فيها.

(١) انظر التفاصيل في المرجع السابق، ص ٣٤٣ وما بعد.

ذلك لأنك قد علمت مما تقرره هذه السُنَّة الربانية، أن الوضع الخارجي للجماعة أو للأمة تابع لدخائلها النفسية، أو (لما بأنفسها) طبقاً للتعبير القرآني. فكيف ترى حال الأنفس التي تتبدى في الساحة الاجتماعية لأمتنا العربية والإسلامية؟ أين هي حال هذه الأنفس من التزكية التي ندب الله إليها عباده؟ وأنا أتحدث عن المجموع لا عن فئة أو دولة بعينها.

المغانم المالية، ومراكز الحكم، ومرتقيات الشهرة، هي مركز الطموحات النفسية لدى معظم الناس من قادة وشعوب. والسباق اللاهث لكسب قلوب قادة العالم الغربي هو شغلهم الشاغل؛ الثروات المالية، والعقارات الفخمة، والأبنية الباسقة، والكنوز المدَّخرة، كل ذلك هو محور طموحاتهم ومركز آمالهم.. وكان لا بدّ أن تنبثق في هذه النفوس من جراء هذا السباق التصادمي إلى هذه الأهداف، مشاعر الأحقاد والضغينة، تشيع ملتهبة فيما بينهم، ولا سيما في طبقة القادة والمسؤولين.

تلك هي صورة ﴿مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ في عالمنا العربي والإسلامي اليوم، فكيف ينبغي أن تكون حال (ما بهم) حسب ما تقرره السنة القرآنية القائلة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾؟

إن قرار الله في هذه السُنَّة يقول: لن ترقى حال ما بالأمة العربية والإسلامية إلى مستوى التماسك والقوة والعزة والنصر على أعدائهم، حتى يرقى ﴿مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ إلى صعيد الطهر والتزكية وتحرر النفس من الانغماس في الأهواء والمنسيات والملهيات، ومن الركون إلى الكنوز والثروات أياً كان السبيل إلى جمعها.

إن حال أمتنا العربية والإسلامية، ثمرة طبيعية لدخائلها النفسية.

وقد شاء الله أن يكون بينهما تلازم السبب والمسبب. وليست هذه السنة القرآنية إلا تقريراً قضى به الله لهذه العلاقة المطردة.

والدرس المستخلص من واقعنا هذا الذي قضت به سنة الله تعالى، هو أن نعلم جميعاً أن آمالنا التي نتحدث عنها في الوحدة والقوة والنصر، واستخلاصِ حقوقنا من المغتصبين، وتطهير أوطاننا ومقدساتنا من الناهبين والمحتلين، لن تتحقق إلا بالرجوع إلى (ما بأنفسنا) من الأرجاس التي سماها الله باطن الإثم، فنتسامى عليها ونتحرر من أسرها، وبعبارة قرآنية جامعة: نزكي أنفسنا ونطهرها من كل ما قد ذكرته ووصفته لك، قبل أسطر. وإنما سبيل ذلك أن تفيض أفئدتنا بمشاعر العبودية والمملوكية لله، وأن نوقظ محبتنا وتعظيمنا له بين جوانحنا، كما عالج أنفسَهم عربُ الجاهلية من قبلهم، فتحولت دخائلهم النفسية من النقيض إلى النقيض.

كيف نفوز بالنصر ونحن ننام ونصحو على رسم الخطط لجمع الثروات متراكمة من كل السبل الممكنة دون أي التفات إلى حرام أو حلال؟ ولكأني أرى أننا نحن المعنيون بحديث رسول الله «لو كان لابن آدم واد من مال لابتغى إليه ثانياً، ولو كان له واديان لابتغى إليهما ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب».

ألا إن تربية النفس هي مفتاح بلوغ الوحدة والقوة والنصر. وليت شعري أين هي العناية بهذا المفتاح، بتربية النفس في مناهجنا التربوية والتعليمية؟ أين هم الصغار، بل الشباب الذين يؤخذون بها، إنْ في المدرسة أو من خلال الإعلام أو المنزل أو الميادين والأسواق؟..

إذن فلنُقِرَّ جميعاً بقرار الله القائل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾، ولنعلم أن القفز فوق هذا القرار، بل القانون، مستحيل.



قراره القائل:

ادعوني أستجب لكم

ومصدر هذه السُنَّة قول الله عز وجل: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٤٠/٦٠]، ويؤكدها قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ٢/١٨٦].

ولنبدأ أولاً بتحديد معنى الدعاء، وبيان الفرق بينه وبين الطلب.

لعل أهم ما يعيننا على تحديد معنى الدعاء، قول الله تعالى في نهاية الآية التي هي مصدر هذه السنة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾، وقوله صلى الله عليه وسلم: «الدعاء هو العبادة»[1].

إذن فالدعاء عبادة. ومن المعلوم أن ممارسة المسلم للعبادة قولاً كانت أو فعلاً، وظيفة يؤديها العبد تجاه ربه، مطلوبة لذاتها، وليست أداة لغيرها.

إذن فالدعاء إعلان من العبد عن ذلّه وافتقاره إلى الله في كل أحواله وتقلباته، أي في ساعات الشدة وحالات الرخاء.. وهذا من

---

(١) رواه أحمد وابن حبان، والحاكم في المستدرك، والبخاري في الأدب المفرد، من حديث النعمان بن بشير.

الواجبات التي ينبغي أن يتوجه بها إلى ربه في كل حين. أي إنَّ توجه العبد إلى ربه بالدعاء، ما ينبغي أن يكون خاصاً في ساعات الشدة أو لدى تعلقه بحاجة عنّت له، إذن سيكون الدعاء عندئذ وسيلة إلى غاية، بل ينبغي أن يعلن عن افتقاره إلى الله في كل الأحوال وسائر التقلبات، لا لشيء إلا لإبراز عبوديته الدائمة لله عز وجل. ويترتب على هذا الذي بينته لك، أن العبد إذ يتوجه إلى ربه بالدعاء لتحقيق حاجة أو لرفع شدة، لا ينقطع عن الدعاء عندما يجد أن حاجته تحققت أو أن الشدة انجابت، كذلك لا ينقطع عن الدعاء إن انتظر فلم يجد الاستجابة، بل يظل معلناً عن فقره ومسكنته، اللتين لا تفارقانه في كل الأحوال.. إنه إنما يعلن من خلال الدعاء عن هويته. وهيهات أن تفارقه هويته بسبب نعيم يتقلب فيه، أو من خلال شدة يعانيها.

وهذا معنى قول رسول الله: «الدعاء هو العبادة» ولا شك أن من استخدم الدعاء ابتغاء غاية ما، فقد أخرج دعاءه عن دائرة العبادة، ومن ثم فعمله لم يعد عبادة، ومن ثم فلا يسمى دعاءً بالمعنى الشرعي أو الديني.

فهذا هو المعنى الشرعي للدعاء.

أما الطلب فهو توجهك إلى وسيلة ما توسّطها ابتغاء تحقيق غاية لك. فمن توجه إلى ذي قوة نافذة يوسطه لترسيخه في وظيفة في إحدى وزارات الدولة، فهو يسمى طالباً، وتوجهه إلى صاحب النفوذ لتحقيق غرضه يسمى طلباً.

وكما يتم هذا على مستوى علاقات الناس بعضهم ببعض، يتم

أيضاً على مستوى صلة الإنسان بربه. زيد من الناس من المتساهلين في الدين وقع من دنياه في ضنك وشدة، وطرق الأبواب والوسائط كلها فلم تأت بخير، وأقبل إليه بعض أصحابه فدلّه على دعاء مُعيَّن وأكد له أنه إن توضأ وصلى ركعتين ودعا به لِحلِّ معضلته، تحققت الاستجابة وحُلّت المعضلة. فأسرع الرجل ينفذ (الوصفة) بعد أن كرر صيغة الدعاء حتى حفظها فصلّى الركعتين على وضوء، ثم راح يسرد الدعاء الذي حفظه، وقعد ينتظر الفرج.

إن هذا العمل يسمى طلباً، وإنه لأبعد ما يكون عن أن يسمى دعاء بالمعنى الذي ذكرته لك.

إن الرجل إن وجد الاستجابة فانجابت عنه الشدة، يعود إلى شأنه من الإعراض عن الدين والتساهل في القيام بواجباته، لأن حاجته إليه انتهت وغايته منه تحققت. وإنه في ذلك لمصداقُ المثل العربي القائل: «صاحب الحاجة أرعن لا يروم إلا قضاءها».

وإن لم يجد الاستجابة، وبقيت معضلته قائمة، هاج هائجه النفسي، ونثر غيظه في وجه صاحبه الذي دلّه على (وصفة) الدعاء، متهماً وعد الله بالخلف بل ربما متهماً الدين كله بالوهم والبطلان.

إذن فأول ما يجب أن يلفت نظرنا عند الحديث عن هذه السنة، ضرورة معرفة الفرق بين الدعاء والطلب. وأكثر العوام من الناس، بل كثير من المثقفين فيهم يغيب عنهم الفرق، فيلتبس عليهم أحدهما بالآخر.

لكي يتحول الطلب إلى دعاء، لابدّ من تحقق شرطين اثنين في شخص الداعي، أولهما يقظة القلب والمشاعر إلى مناجاة الله في

تذلل وانكسار حقيقيين، قاصداً أن يجعل من دعائه تعبيراً عن عبوديته ومملوكيته الدائمة لله تعالى، مقرراً في نفسه أن لا يبارح باب الله عز وجل، عارضاً له فقره واحتياجه، سواء استجاب له أم لم يستجب، أعطاه أم منعه. ثانيهما التوبة الصادقة إلى الله تعالى من سائر الأوزار، مع العزم على أن لا يعود إلى شيء منها.

فإذا تحقق هذان الشرطان، فقد تحول الطلب بذلك إلى دعاء، وغدا الدعاء لبّ العبادة. وعندئذ لابدّ أن تتحقق الاستجابة التي وعد بها الله عز وجل.

ولكن إياك أن تتوهم أن الاستجابة تعني أن يحقق الله لك حرفية ما قد سألته في دعائك. بل اعلم أن الاستجابة التي وعد الله بها عباده، أعم وأوسع من ذلك.

إن استجابة الله لك، تعني أن يحقق لك هدفك الذي تطمح إليه من وراء مسألتك. وليس من مقتضى ذلك أن يحقق لك حرفية ما قد سألت، ظاناً بأنه السبيل الذي لابدّ منه إلى هدفك.

سألت الله في دعائك شيئاً محدداً، ظناً منك بأنه الضمانة لتحقق الهدف الذي ابتغيته. ولكن الله الذي يعلم غيب السماوات والأرض، ويعلم ما قد تأتي به التقلبات والأحداث، قد يعلم أن هذا الشيء الذي سألته وتعلقت به، لا ينطوي في الواقع على الخير الذي تبتغيه، بل ربما كان سبباً لنقيضه، فيصرف الله عنك - لطفاً بك - حرفية ما طلبت، ويحقق لك الهدف البعيد الذي ابتغيته من وراء دعائك، بوسيلة أخرى لم تكن تخطر منك على بال، مذكراً إياك بقوله عز وجل:

﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢/٢١٦].

وكم في حياة كل منا من نماذج لهذه الحقيقة التي أقولها لك، كم من إنسان تعلق قلبه بوظيفة خيل إليه أنها تحقق له رغائبه وأحلامه، وبات يدعو الله ويلحف في الدعاء أن يكرمه بتلك الوظيفة. وانتظر .. وانتظر .. دون أن تنقاد له تلك الوظيفة، وقد حقق في نفسه معنى الدعاء وشروطه، وما هي إلا أيام حتى خلق الله أسباباً أخرى، أوصلته إلى بغيته من حيث لم يحتسب. وراح يتأمل في الأسباب التي اختارها الله له، وإذا هي خير من الوظيفة التي كان متعلقاً بها، بأضعاف كثيرة، فأخذ يحمد الله أن صرفه عما كان متعلقاً به، وأكرمه بهذه الوسيلة الأخرى التي لم تكن تخطر منه على بال.

وإني لأذكر، ولا أنسى، أنني في كثير من أيامي الخوالي من العمر، تعلقت برغائب، خيل إليّ أن سعادتي متوقفة عليها، وأخذت أدعو الله وأسأله ليل نهار أن يحققها لي، ولكنها لم تتحقق. وقبل أن ينال الشيطان مني فرصة إساءة الظن بالله عز وجل، عوضني عن تلك الرغائب بما هو خير منها، فأخذت أحمد الله عز وجل أن لم يحقق لي حرفية ما كنت أطلب، إذ لو تحققت لي تلك الرغائب الحرفية، لجرتني إلى مصائب لا حدّ لها، وإنه لَلُطف كبير وعجيب من الله عز وجل بالعبد أن يراه متعلقاً - لجهالته - ببوارق ظاهرها الخير، وفي خفاياها البلاء، فيصرفه، ويقصيه الله بلطفه عن تلك البوارق، ويكرمه بما يتأمله ويبتغيه من ورائها، مما قد يحقق له الخير ويصرف عنه أسباب الشقاء.

* * *

ثم إياك أيضاً أن تحسب - بعد دعائك - على الله الليالي والأيام، وربما الساعات، منتظراً أن تلقى الاستجابة في أقرب وقت، فإذا مضت مدة تحسبها في نظرك طويلة، دون أن تجد الاستجابة المطلوبة، ضاق صدرك، وربما قلت في سرك أو جهرك: ها أنا ذا قد دعوت فلم يستجب لي.

أقول: إياك أن تنزلق بك النفس إلى هذه الحال، فإنك ستتحول بذلك من الدعاء الذي هو لبّ العبادة، إلى الطلب الذي هو منطق الرعونة. ولقد أسلفت لك الفرق الذي لا يجوز أن يغيب عن بالك بين الدعاء والطلب. فحاذر أن تتحول من عبادة الدعاء إلى رعونة الطلب.

الدعاء عبادة قائمة بذاتها، فهو غاية لا وسيلة. والإنسان عبد مملوك لله، ومن أهم وظائف العبد أن يعلن عن عبوديته لسيده، وذلك بأن يعبر عن افتقاره الدائم إليه. وسواء تلقى العبد نتائج دعائه وإعلانِه عن احتياجاته، أم لم يتلق شيئاً من ذلك فإن شأن مملوكيته لله وافتقاره إليه أن يظل واقفاً على بابه ملتصقاً بأعتابه.

ولا يوهمنك خلافَ ما أقول أن الله قرن الدعاء بالاستجابة عندما قال: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٤٠/ ٦٠] بحيث يخيل إليك أن مبرر الدعاء منك تلقّي الاستجابة من الله.

لا، ليس معنى الآية كما تتوهم، وليس بين جملتي الآية شيء من هذا الربط أو العلاقة الملزمة التي تسري إلى وهمك.

الآية تتضمن أمراً اقتضته عبودية الإنسان لله وهو قوله: ﴿ٱدْعُونِيٓ﴾ وهو أمر مطلق غير مقيد بحال دون حال، ولا مرتبط بشرط. وتضمن

بعد ذلك وعداً اقتضته رحمة الله وتفضله على عباده بالمنن التي لا تحصى، فلا الأمر مقيد حكمه بإنجاز هذا الوعد، ولا الوعد سلعة يستحقها العبد مقابل الدعاء.

وهذا معنى قول رسول الله: «يستجاب لأحدكم ما لم يعجل، يقول: قد دعوت فلم يستجب لي»[(١)].

إن معنى قوله، صلى الله عليه وسلم، هذا: يستجاب لأحدكم ما لم يظن أن له على الله حقاً، أن يستجيب دعاءه إن دعاه، وما لم يقل في نفسه: وها أنا مع ذلك قد دعوت ولم أنل حقي في الاستجابة.

إذن هما أمران كل منهما منفصل عن الآخر. الدعاء عبادة يجب على من علم عبوديته لله أن يؤدي حقها عليه، بقطع النظر عن النتائج التي يتوقعها، وهذا معنى قوله ﷺ: «الدعاء هو العبادة» والاستجابة تفضل وإكرام من الله عز وجل.

* * *

والإشكال الذي قد يخطر في بال أحدنا إثر هذا الكلام هو ما يلي:

إن الله قد ألزم ذاته العلية باستجابة الدعاء، وأخبرنا بذلك في قوله: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ ومن شأن هذا الالتزام منه عز وجل أن يُطمعَ الداعيَ بالاستجابة، ومن شأن هذا الطمع أن يجعل آمال الداعي متعلقة بالاستجابة.

---

(١) رواه الشيخان وأبو داود والترمذي وابن ماجه من حديث أبي هريرة.

والجواب أن طمع العبد بالاستجابة يدخل في باب حسن الظن بالله عز وجل، وهو أمر مستحسن ومطلوب.

ولكن هذا لا يستدعي أن يتحول الدعاء إلى مجرد أداة أو وسيلةٍ يستعملها الداعي لنيل حاجاته ورغائبه.. إن المؤمن بالله إيماناً حقيقياً يعلم أنه فقير إلى الله فقراً مطلقاً في كل الأحوال، والشأن في المؤمن الذي يعلم هذه الحقيقة من نفسه أن ينتشي بمشاعر افتقاره إلى الله، وأن يلذّ له التذلل على بابه والتمسكن عند أعتابه. وإذا كان تمسكن المحب لمحبوبه أو محبوبته من البشر من أمثاله، مبعث نشوة ولذة، فكم تكون هذه النشوة عظيمة عندما يكون مصدرُها تمسكنَ المخلوق لخالقه والعبد لسيده؟!..

والمهم أن تعلم أن هذه النشوة الذاتية بمشاعر الافتقار والتذلل لله، لا تتعارض مع انتظار العطاء وترقب الاستجابة والإكرام اعتماداً على ما قد تعود من تلقي عطاياه ومنحه، وما قد يصله من نعمه ورسائل حبه، لا يقيناً بأنه لمّا توجه إليه بالدعاء استحق منه الاستجابة، بل يقيناً منه بأنه لا يخيب رجاء من بسط إليه كفّ الاستجداء.

بل إن هذا الترقب يعدّ من مظاهر أدب العبد مع الرب، ومن أبرز ما تدعو إليه مشاعر الافتقار إلى الله. ولكن الفرق كبير بين هذا الترقب الذي هو شأن العبد المفتقر إلى مولاه، وبين التلهف على الاستجابة والاستعجال بها، بحيث يتحول الداعي إن تأخرت الاستجابة، من الدعاء إلى الشكوى، ومن الالتجاء إلى الاعتراض.

وقد أوجز ابن عطاء الله السكندري رحمه الله، كل هذا الذي قلته

لك في واحدة من حكمه، وهي التي يقول فيها : «لا يكن أمد تأخر العطاء مع الإلحاح في الدعاء موجباً ليأسك. فهو ضمن لك الاستجابة فيما يختاره لك، لا فيما تختاره لنفسك، وفي الوقت الذي يريد لا في الوقت الذي تريد»[١].

وصفوة القول أن استجابة الله لدعاء عباده سنة ثابتة، ألزم الله عز وجل بها ذاته. على أن لا يتحول الدعاء عن معناه ومدلوله التعبدي إلى طلب عارض دعت إليه حاجة عارضة، مع ما أوضحته لك من أن الاستجابة لا تعني تحقيق حرفية ما قد سأله الداعي، بل هي تعني تحقيق الغاية التي قصدها الداعي من حرفية ما سأل. وعلى أن لا يستعجل الداعي إنجاز الاستجابة، بل يترك ميقات الاستجابة لحكمة الله عز وجل، ودقيق تدبيره.



(١) انظر ما قلته في شرح هذه الحكمة، في ١/ ١٠٠ ففيه مزيد من التفصيل المفيد في بيان هذا البحث أو هذه السنّة.

خاتمة ودعاء

وإذ قد وفق الله لختم الحديث عن سلسلة هذه السنن الربانية، بسنة استجابة الله عز وجل دعاء عباده المؤمنين به، فلأتوجه إليه عز وجل في نهاية هذا الذي وفقني الله إليه بدعاء ضارع أعلم أنه أهل لاستجابته وإن لم أكن أنا أهلاً لها:

اللهم لك الحمد على نعمك التي غمرتني بها منذ فجر وجودي، دون انقطاع لشيء منها إلى اليوم، لك الحمد على هذا الذي أقمتني فيه من استخدام قلمي لبيان هديك، ولتيسير السبيل أمام عقول الناس لمعرفتك، ولإيقاظ أفئدتهم لمحبتك وتعظيمك.

وفقتني - يا مولاي - لإنجاز هذا الذي انطوى العزم عليه، منذ أمد طويل، ولكنك شئت ببالغ حكمتك وعظيم رحمتك أن لا أُقبِل إلى القيام بإنجازه إلا في هذه المرحلة التي قد تكون الأخيرة في حياتي، ثم شئتَ بغير قصد مني ولا تخطيط أن أجعل خاتمة ما أشرحه من سننك الماضية في عبادك، سنتك الرحمانية التي ألزمت ذاتك العلية بها، وهي استجابتك لدعاء من أقبل يدعوك بسائق عبوديته لك، مرتدياً رداء الذل والانكسار لجنابك، واثقاً بواسع رحمتك وعظيم فضلك.

إذن فاقبلني - يا مولاي - واحداً من عبادك اللائذين بباب كرمك

وإحسانك، وكلّي ثقة بل يقين بأنك لن تعاملني بما أنا أهل له، بل ستعاملني بما أنت أهل له من الصفح والاستجابة والعطاء.

اجعلني - يا مولاي - وزوجي وذريتي من عبادك الذين أرضيتهم ورضيت عنهم، والذين أحببتهم فأحبوك، مع العافية التامة ورغد العيش دون ابتلاء، وأسألك اللهم أن تجعلنا من عبيد إحسانك لا من عبيد امتحانك.

مولاي اجعل قلبي وعاء لحبك، واجعل اللهم حبي لك أحب إليّ من الماء البارد للكبد الظمآن. أعنِّي اللهم على ما أقمتني فيه، علمني ما ينفعني وانفعني بما علمتني وزدني علماً، ألهمني الرشد في كل ما أقول وكل ما أفعل.

يا رب: أشكو إليك دنياي التي تهجم على قصدي فيما أقدم عليه من مثل هذا العمل أو التأليف الذي أنا بصدده، لتعكّر عليّ صفو إخلاصي لوجهك، بل أشكو إليك نفسي التي تتعاون مع دنياي عليّ. أنقذني من براثن نفسي، اكلأني من شرها وشرّ شياطين الجن والإنس بعين عنايتك وأتم رعايتك.

مولاي: عودتني في حياتي كلها المنن والمنح، لا تقطع اليوم عني رفدك، ولا تحرمني شيئاً من مننك ومنحك التي عودتني عليها. سترت قبائحي عن عبادك في دنياي اليوم، فأسألك اللهم أن لا تفضحني بها غداً يوم العرض عليك.

سخرتَ قلمي ولساني للتعريف بدينك، فلا تجعل أجر ذلك مجرد دنيا تكرمني بها، قائلاً يوم العرض عليك: لقد أخذت أجرك في الدنيا، فلم يبق لك اليوم منه شيء.

لا تقطعني عنك بذنوبي ولا بقبائح عيوبي، ولا تجعل حقوق الناس عليّ سبباً لإهدار ما وفقتني إليه وتكرمت به عليّ من صالح الأعمال، ألهمهم اللهم الصفح عني، وأجزل لهم المثوبة لقاء ذلك، حتى لا يطمعوا بتعريتي من صالح ما وفقتني إليه.

اجعلني وأهلي وأحبابي وكل من يقرؤون كلامي، من عبادك المؤمنين بك، من عبادك الذين قلت عنهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/١٠١-١٠٣].

وإذا حانت ساعة رحلتنا من هذه الحياة الدنيا، فكرّه إلينا الدنيا بكل ما فيها وحبب إلينا لقاءك، واملأ اللهم أفئدتنا شوقاً إليك، واجعل من اشتياقنا إليك، ما يخفف عنا برحاء الموت، بل يحجبنا ويغيّبنا عنه. والحمد لله ربِّ العالمين. وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.



مستخلص

يبحث الكتاب في بعض من سنن الكون، وفق التعبير القرآني، بما يجيب عن أسئلة كثير من التائهين أو المعترضين.

يبتدئ المؤلف بسنة (أخذ الله عباده بمزيج من الرخاء والشدة)، وبيان الحكمة منها. ثم يتبعها بسنة (من يعمل سوءاً يجز به)، مع بيان أنواع الجزاء وميقاته. تلتها سنة (طرد المستكبرين عن ساحة عفوه). فسنة (تحقيق ثمرات جهود العاملين في الدنيا، مؤمنين كانوا أم كفاراً). ثم يعرِّج على سنة (تسخير كل شيء للإنسان، وعلاقة الإنسان بالمسخَّرات). ويتحدث بعدها عن سنة (عقاب الدنيا للمؤمنين المستهترين، وعقاب الآخرة للجاحدين)، ولِمَ تصير أعمال الكافرين في الآخرة هباء منثوراً؟ ثم يتناول سنة (محبة الله للعدل وإثابته عليه حتى في المجتمعات الكافرة، وكرهه للظلم وإن كان الظالمون مسلمين). بعدها يوضح سنة (عدم التخليد في النار لمن لم تبلغه الدعوة)، بتفصيل عمن بلغته الدعوة مشوهة، أو لا يستطيع التحرك لمعرفة شيء عن الإسلام. تلتها سنة (نصر الله – بأوسع معاني النصر – لعباده إذا ما هم نصروه). فـ(مسامحة الله وصفحه عن الذنوب، خلا تلك التي تتعلق بحقوق الناس). تعقبها سنة (أن الله لا يهلك قوماً يصلحون ما بينهم وإن كانوا كافرين). ثم (السكوتُ على المنكرات نذيرُ سوء)، مع شرح كيفية إنكار المنكر، ودور ولاة الأمر فيه. ثم سنة (استدراج الطغاة إلى أجل)، وحال المسلم العاصي الذي لا تنقطع عنه النعم. ثم سنة (البشارة والنذير عند الموت). يتلوها حديث عن سنة (تراجع قوى الإنسان مع بدء شيخوخته) ودور العلم في الحد منها. ثم يتحدث عن السنة الكبرى (سنة الموت). ثم يتناول، ويذكر نماذج عن سنة (لا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم). ويختم بسنة (استجابة الله الدعاء) وترتب الإجابة عليه. ويختم الكتاب بدعاء.